بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد : فيشاء ربك أن تقدم أصول هذا الكتاب للطبع وتستيقظ بعد سبات عميق أتت عليه أزمان طويلة وسنين ملأى بالحوادث والفواجع والآلام ، تبدلت فيها الأوضاع وتغيرت الاحوال . فكأنما انقلب الانسان وحشا ضاريا يروى ظمأه من بحار الدماء ، ويشبع شرهه بمزق الاشلاء . فخربت المدن ، وهدمت الديار ، وفنيت ألوف الألوف من الانسان باظفار ومخالب أخيه الانسان

ولكنها شنشنة نعرفها من أخزم . فمنذ وجد آدم وحواء وأولادهما والقتل لم يفل صارمه ، والناس غرقى فى بحار الدماء . وأقرب الشواهد على ذلك الحرب العالمية الماضية التى قلبت فيها الأوضاع البشرية وتجلت فيها الوحشية ، وانمحت فيها مقومات الانسانية ، وحلت فيها المصائب والارزاء على البرية ، فنرجو الله لنا ولكم الهداية والعافية إنه سميع مجيب ؟

مصر الجديدة فى يوم { ١٣ صفر سنة ١٣٦٦ الموافق ٦ يناير سنة ١٩٤٧ } دكتور على مظهر

١ — مقـــــدمة

بدأ تفـكيرنا فى كتابة تاريخ كاف لمحاكم التفتيش منـذ سنين عديدة . وكان مقصدنا من ذلك أن يكون جزءاً من أجزاء كتاب جامع لأخبـار المسلمين فى أوروبا الغربية منذ وطئت أقدامهم أرض جزيرة الأندلس وزحفوا عليها وعلى ما جاورها من البلاد ، حتى بلغوا أن كانوا بالقرب من « تور » بفرنسا ، وعلى بعد ثلاث ساعات تقريباً بالقطار من باريس اليوم .

وقد كتبت كثيراً من صفحات هذا الـكتاب أثناء وجودى بالاسكندرية فى العام الماضى ، وكتبت بعضاً منه بالقاهرة ، وألقى جزء كبير مما كتب على دفعتين بصفة محاضرة أو مسامرات موضحة بالصور والرسوم ، فظهرت بمعونة الفـانوس الـكهربائى السحرى ، بنادى الشبان المسلمين بالقاهرة ، خلال شتاء سنة ١٩٢٩ .

وقد أضيفت أشـياء ومعلومات إلى الصفحات التى خططناها أثناء وجودنا بالفيوم ، رأينا من المستحسن إضافتها إلى الـكتاب ، ليـكون وافياً بعض الوفاء المطلع الذى يريد الالمام بأخبـار تلك الفواجع المؤلمة ، التى تمت على يد رجال المحاكم التفتيشية ، وعلى يد رجال الديوان الجهنمى المقدس ! !

وسيكون هذا الـكتيب حلقة فى سلسلة الـكتاب الذى كتبنا شيئاً منه عن الفردوس الاسلامى المفقود . ونعنى بذلك : الاندلس نسأل الله المعونة على إتمامه .

وكان العزم أن نظهر الـكتاب كله دفعة واحدة بين دفتين . ولـكنا رأينا أن نظهره فى أجزاء ، كل جزء على حدة . إذا أضيفت الاجزاء كلها إلى بعضها كونت ذلك الـكتاب المنشود الذى أشرنا إليه فى أول هذه المقدمة .

والآن وقد أتينا على جل ما أمكننا ذكره وتدوينه فى هذا الموضوع . فنسأل الله أن تكون الفائدة منه على قدر ما قصدنا إليه من كتابته ونشره .

صدر عن الفيوم فى يوم الخميس الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٤٩ هجرية .الموافق للحادى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية .

علي مظهر

من الفتح الاسلامى إلى سقوط غرناطة

تم للعرب فتح شمال أفريقية أيام الدولة الأموية ، ثم عبروا الى أرض أسبانيا أيام الوليد بن عبد الملك فاتحين سنة ٩٢ هـ ، بقيادة طارق بن زياد . ثم ذهب إليها موسى بن نصير ، وتم فتح جل شبه جزيرة ايبريا . وتوالت على تلك البلاد المفتوحة الولاة من قبل بنى أمية ، وخطب باسمهم فى جوامعها حتى انتهى أمر الامويين بالمشرق سنة ١٣٢ هـ وفى أيام عبد العزيز بن موسى بن نصير وفد الناس والقبائل من الشام والعراق ومصر وغيرها على جزيرة إيبريا ، فأنزل كل جماعة وقبيل منهم جهة من جهات الاندلس وغيرها الخصبة . ونهض السمح بن مالك — أحد ولاة الاندلس — ففتح جنوب فرنسا ، ومات وهو على حصاره لمدينة طلوشة (تولوز) . ثم نذكر عنبسة بن سحيم الذى غزا قرقشونة ، ونيم ، وغيرها فى جنوب فرنسا . أما عبد الرحمن الغافقى فانه سار إلى أرل ، ثم سار إلى بوردو فاستولى عليها . ثم استولى على ليون و بيزانسون عنوة . ثم فتح تور . وفى مكان بينها و بين پواتييه كانت الواقعة التى ارتد منها المسلمون للتكالب على الاسلاب والغنائم وحدث اضطراب فى جيوش الغافقى أمام جيش يقوده شارل مارتل (قارله) وعبثاً ذهبت جهود القائد العربي لتثبيتهم ، وخر قتيلا فى تلك الموقعة . فارتدت فلولهم عن أرض فرنسا جنوباً ، واستقروا فى أسبانيا

ومن الغريب فى أمر أولئك الامراء أنهم لم يطهروا بقايا القوط والنيبريين (النافاريين) وغيرهم الذين لجأوا إلى سكنى القسم الشمالى ،وعلى الاخص الغربى منه . وكانوا سبب أحداث وفتن واضطرابات فى البلاد المفتوحة . ثم قوى أمرهم فيما بعد حتى أمكنهم طرد المسلمين من ذلك الفردوس المفقود .

ولا تسل عما كان يقوم من الاضطرابات والثورات الداخلية فى البلاد التى

فتحها المسلمون فى أسبانيا والبرتقال ، لما كان من حروب داخلية لا تنقطع بين القبائل المضرية واليمنية ، أو بين الشامية والمصرية ، أو بين البربر والمولدين ، أو بين جملة عناصر منهم ضد آخرين ، وقتل فى تلك الاضطرابات آلاف من المسلمين ، وكثير من أمرائهم وقادتهم .

واستمر تعيين الولاة من قبل بنى أمية بالمشرق إلى سنة ١٣٢ هـ إذ غلبوا على أمرهم وتولى الخلافة بنو العباس ، وأمعنوا فى بنى أمية قتلا . ففر عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى الاندلس ، ودخلها سنة ١٣٨ هـ وعرف بعبد الرحمن الداخل ، فكان أميراً ذا آمال كبار ، وتم له أن أصبح أمير البلاد ، عوضاً عن أمرائها من قبل العباسيين . وسار إلى قرطبة واستولى عليها ، وبايعته البلاد أميراً ، وشاد ملكا لبنى أمية بالمغرب فى بلاد الاندلس .

وكان يدعو أولا للخليفة المنصور العباسى ، ويخطب باسمه على المنابر ، وكان المنصور يسميه بصقر قريش . فلما توطد سلطانه قطع الدعوة له وأسقط اسمه من الخطبة،واستمر فى الحكم إلى أن مات سنة ١٧٣هـ فتولى الامارة بعده ابنه هشام . وتتابع ولاة بنى أمية على أسبانيا والبرتقال إلى أن انتهى أمرهم سنة ٤٢٨ هـ .

وحدث فى أيام عبد الرحمن الناصر فى سنة ٣١٧ هـ أن أعلن خلافته فى الاندلس بمنشور أرسله إلى جميع الجهات ، وتسمى بأمير المؤمنين وضربت باسمه السكة (النقود) . وعرف من جاء بعده من بنى أمية باسم الخليفة .

وقد استبحر بالاندلس العمران أيام بنى أمية ونشطت الحركة الفكرية وكثر العلماء والشعراء والادباء ، وكانت لحكومتهم قوة مرهوبة حتى انتهى أمر البلاد إلى تفرق الجماعة وانقسامها ، وذلك بسبب استكثار الامويين فى الاندلس

من البربر الذين شايعوهم وساعدوهم على بنى العباس ، واستكثارهم من شراء المماليك الصقالبة والاتراك وغيرهم ، سيما فى أيام عبد الرحمن الناصر ، حتى أصبحت لهم الكلمة النافذة فى البلاد ، وانتقل إلى أيديهم حكمها الفعلى . وهنا ننقل كلمة لمحمد بك لبيب البتانوني فى كتابه رحلة الاندلس (الطبعة الاولى ص ١٢٠) إذ يقول : —

وكانت نفوس كثير منهم تتحدث فى قرارتها بتخطى الرقاب ، وطرق كل باب للوصول إلى منصة الحكم ، ولم يكن يقعد بهم عنها إلا ما كان يحيطها من رمح مشروع ، وسيف مسلول ، وعظمة قائمة ، وسلطان قدمه فى الارض ورأسه فى السماء . وعلى كل حال فقد كان لهم التصرف المطلق فى داخلية الدولة وخالف الامويون فى الاندلس آباءهم فى دمشق فى محافظتهم على عصبيتهم العربية ، فضعفت بذلك شوكة العرب ونقموا على حكومتهم . وما زالوا يترقبون الفرصة للخروج عليها ، حتى قام ابن أبى عامر وزير الحاكم بن الناصر . وكان من العرب المنتصرين لعصبيتهم . فأخذ بدهائه فى التفرقة بين العناصر المتغلبة ، من صقالبة وأتراك وبربر ، ثم بالايقاع بهم شيئاً فشيئاً . وكان فى أثناء ذلك يستقدم رجالات من بربر المغرب من زناتة ومصمودة وغيرهم . وكان يوليهم مناصب الدولة ، حتى إذا شعروا بعده بضعف الخلفاء ومن والاهم أخذوا يخرجون على دولتهم ويستقلون بأطرافها .

وأول من بدأ منهم بالاستقلال : بنو عباد ، فى إشبيلية ، ثم بنو زيرى فى غرناطة ، وبنو الأفطس فى بطليوس ، ثم بنو ذى النون فى طليطلة . ثم بنو عامر فى بلنسية ، ثم بنو هود فى سرقوسة ، وبقيت قرطبة فى يدى بنى حمود ، ثم بنى جهور . وما زالوا حتى غلبهم على أمرهم الفرنجة من الشمال . ثم المرابطون من الجنوب .

وأخذ ملوك أو أمراء الطوائف يغير الواحد منهم على ما بيد الآخر طمعاً . فكان ذلك سبباً فى ضعفهم ، حتى اضطروا إلى دفع الجزية إلى الادفونش ، ولاقوا من مسيحيي الاسبان الذل والهوان ، وصغر أمرهم . وضاقت صدورهم من غدر ملوك الاسبان وأمرائهم وسوء معاملتهم ،فرأوا استدعاء المرابطين من المغرب لنجدتهم . وكان صاحب هذا الرأى هو ابن عباد صاحب اشبيلية .

فهم يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين بالمغرب لنجدة مسلمى الاندلس ، وعبر إلى الجزيرة سنة ٤٤٩ ﻫ بجيوشه الجرارة بقيادة قائده الكبير داود بن عائشة . وتقابلت جيوش المرابطين بجيوش مسيحيي الاسبان قرب بطليوس . وكان يرأس كبر ذلك الجيش الاسباني الادفونش (الفونسو) ملك قشتالة . فكانت موقعة هائلة انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً ، وعرفت بواقعة الزلاقة وهرب الادفونش وهو جريح فى يده جرحا بليغاً . ثم اصطلح الفريقان ورفع ظلم الاسبان عن مسلمى الاندلس . ولم يدفعوا لهم الجزية المعتادة كل سنة ، وتسمى يوسف بن تاشفين بعد واقعة الزلاقة باسم أمير المسلمين . وقد غنم المسلمون الشيء الكثير جداً من الأموال والأنفس فى هذه الموقعة فتركه ابن تاشفين كله لأهل البلاد ، وترك الاندلس عائدا إلى بلاده .

ثم عاد إليها سنة ٤٦٨ ﻫ مرة أخرى وأجاز إلى الاندلس ، لأن أهلها شكوا إليه من كثرة المكوس (الضرائب) التى كان ملوك الطوائف يأخذونها منهم . فخافه أولئك الملوك الصغار واتفقوا مع ملوك وأمراء المسيحيين الاسبان عليه ، ومنعوا جيوشه من أخذ الميرة والعلف وما يلزمها . ولكنه استولى على بلادهم كلها ، وأصبحت كل بلاد الاندلس تحت ولايته إلا سرقسطه ، فقد بقيت لبعدها فى يد بني هود . ومن ثم أصبحت البلاد فى يد المرابطين و بقيت فى أيديهم حتى زالت دولتهم فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، وقامت مكانها

دولة الموحدين . وقد أرسل أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على إلى الاندلس جيشاً للفتح ، فتغلب على الجزء الغربى منها . ثم حاصر المرية ، فاستغاث أهلها بالادفونش فأرسل خليفته محمد بن مردنيش على رأس جيش خليط من المسيحيين والمسلمين فهزمه عبد المؤمن ، وتم استيلاء الموحدين على الاندلس أيام ابنه يوسف أمير المؤمنين . فأصلح وشيد باشبيلية العمائر ، و بنى جامعها وأقام جسرها .

واستمر ابنه المنصور من بعده مصلحا . وقد حارب المنصور يعقوب جيوش الادفونش وجموعه من ملوك وأمراء النصرانية ، فانتصر عليهم انتصارات باهرة فى واقعة الكرك الشهيرة Alarcos وصار يفتح الحصون والبلاد مما كان فى أيديهم . وتقدم فاتحا ، فطلبوا إليه عقد الصلح ؛ فصالحهم على خمس سنين وكان ذلك فى سنة ٥٩٢ هـ .

وكانت غنائم المسلمين شيئا كثيرا عدا من قتلوهم فى تلك المعارك ، حتى قيل إنهم بلغوا مائة ألف قتيل . وباع المسلمون الاسير بدرهم لكثرتهم ، والسيف بنصف درهم والحمار بدرهم والفرس بخمسة دراهم . ثم استولى المنصور بعد ذلك على طلمنكة . ثم قصد طليطلة عاصمة الادفونش وحاصرها . وكاد ينزل من فيها على إرادته ، ولكن والدة الادفونس و بناته وحرمه نزلن واستغثن بالمنصور و بمروءته ، فأكرم مثواهن وأعادهن إلى مقرهن معززات مكرمات ، وعاد هو إلى بلاده بالغنائم العظيمة .

قارن تلك المعاملة وما فعله مسيحيو الاسبان بنساء المسلمين وبناتهم وأطفالهم وشيوخهم من الاضطهاد والتعذيب والتحريق .

ثم مات المنصور يعقوب سنة ٥٩٥هـ . فتولى ابنه أبو عبدالله محمد الناصر بعده ، فذهب إلى الاندلس سنة ٦٠٩ هـ . بجيوش قدرها البعض بستمائة ألف مقاتل .

وأعجبت الناصر كثرة جيوشه ، فأساء معاملة أهل البلاد الاندلسية . وفتك بكثير منهم بايعاز من وزيره ابن جامع ، الذى أراد أن تكون له وحده الكلمة العليا ، فخسر عطف الاهلين العارفين بمسالك البلاد ومخابئها . وأعلن البابا الحرب المقدسة الصليبية ضد جيوش المسلمين . فهرعت جيوش النصرانية من إيطاليا وفرنسا وألمانيا واتحدت قواتها فى أسبانيا مع مسيحيي الاسبان ، واستعدوا للقاء الناصر فى سهول نافادو ، وتولوزا — وهى قرية تبعد عن شمال قرطبة مائة وأربعين كيلو مترا — ويعرفها المسلمون باسم العقاب ، لكثرة ما فيها من عقبات كانت سببا فى خذلانهم وانتصار جيوش النصارى المتحدة عليهم انتصارا باهرا ، وتمزقت جيوش الناصر المتخاذلة مع أهالى البلاد .

ومات الناصر عقب موقعة العقاب هذه فبايع أهل المغرب ولده يحي. فلجأ المأمون ابن الناصر إلى ملك قشتالة يستنصره على أخيه يحي وعلى قومه الموحدين . فتم الاتفاق معه على شروط ، منها ٠ ان يعطيه عشرة حصون يختارها هو مما فى يد المسلمين مما يلى بلاده . وأن تبني لهم كنيسة فى مراكش وقبل المأمون . فجهز له ملك قشتالة جيشاً من الأسبان دخل به أرض المغرب ، وهناك جمع المأمون شيوخ الموحدين وقتلهم صبراً . وكان عددهم نيفا و أربعة آلاف نفس . و ثارت الأطراف عليه ، وضعف أمر الموحدين .

فأخذ الأسبان فى الاستيلاء على قرطبة ثم على جزر البليار ، و بلنسية ، واستولى أسطولهم على سبتة وغيرها من سواحل المغرب . ثم استولوا على اشبيلية ، وما زالوا يستولون على بلاد الاندلس وحصونه واحدا بعد واحد ، حتى لم يبق فى يد المسلمين غير غرناطة بقيت فى يد بني الأحمر لمنعتها وكثرة أهلها،فقد كان يلجأ اليها جل أهالى البلاد التى يفتحها الأسبان .وكانت غرناطة تدفع الجزية غالبا لملوك قشتالة .

واستولى بنو مرين على المغرب فكان بنو الاحمر يساعدون الأسبان عليهم، وكان بنو مرين يتحدون احيانا مع ملوك قشتالة على بنى الأحمر. واستمر ملك بنى الأحمر قائما بغرناطة إلى أن دب الخلاف على الملك بين أبى عبد الله ابن أبى الحسن وبين عمه الزغل فانتهى بتغلب الأسبان على غرناطة سنة ٨٩٢ هـ (سنة ١٤٩٢ ميلادية) وكان ذلك نهاية أمر المسلمين بالأندلس .

ويحسن بنا أن نشير إلى أن المسلمين كانوا يذكرون اسم الأدفونش فى حديثهم عن الأندلس ، ولم يكن هذا شخصا واحدا ، بل كان لقبا لكثير من ملوك الأسبان . وكان أشهرهم الفونس (ادفونش) السادس ملك قشتالة وليون واشتوريا ، الذى استولى على طليطلة سنة ١٠٨٥ ميلادية . وجعلها عاصمة ملكه . وبعدها أخذ يستولى على أطراف بلاد المسلمين حتى أصبح له النصف الشمالى لأسبانيا ، المعروفة باسم قشتالة الجديدة ، وقد كسر يوسف بن تاشفين جيوشه فى واقعة الزلاقة سنة ١٠٨٦ ميلادية . ومات سنة ١١٠٩ م

أما الفونس الثامن ملك أراغون فهو الذى كان له شأن يذكر مع ملوك الطوائف وجيوش الموحدين . وقد انتصرت عليه وعلى جيوشه جيوش يعقوب ابن عبد المؤمن فى موقعة الكرك سنة ١١٩٥ ومات سنة ١٢١٤ م بعد انتصاره بجيوشه المتحدة مع جيوش النصرانية المتحدة على محمد الناصر فى واقعة العقاب المشار اليها آنفا .

وكان الفونس أمير البرتقال هو الذى استولى على الاشبونة وشنتارين من المسلمين وانتخب بعدها ملكا على البرتقال .

وفرديناند الثالث ملك قشتالة المسمى بسان فرديناند (القديس فرديناند) هو الذى أخذ قرطبة من المسلمين سنة ١٢٣٦ م ثم استولى على اشبيلية سنة ١٢٤٩ م .

أما فرديناند الثاني ملك نبرّة (نافارا) واراغون فتزوج بايزابلا ملكة قشتالة وفتحا متعاونين غرناطة وأخذاها من المسلمين سنة ١٤٩٢ م واخرج منها من أخرج وعذب فيها وفى غيرها من عذب من بقايا المسلمين

وسبب ذلك تخاذلهم وانقسامهم بعضهم على بعض حتى استقل ببلاد الدوله الاسلامية هناك عشرون واليا فى البلاد الآتية : اشبيلية . جيان . سرقطة . الثغر .(ما كان فى شمال طليطلة) طليطلة غرناطة . قرمونة . الجزيرة الخضراء . مرسية . بلنسية . دانية . طرطوشة . لارده . باجة . المرية . مالقة . بطليوس . الاشبونة . جزر البليار . قرطبة .

وينسب لابن حزم قوله : فضيحة لم يأت الدهر بمثلها ، أربعة رجال يسمى كل واحد منهم أمير المؤمنين ، واحد باشبيلية والثانى بالجزيرةالخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة . وأصبح العرب والبربر فى خلاف مستديم والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الاقصى ، وفى حروب مع الامم الاسبانية والبرتقالية

ثم آل امر هذه الدول إلى خمس : سرقطة وما والاها شرقا إلى البحر فى يد ابن هود. وطليطلة وما والاها شمالا وجنوبا فى يد ابن ذى النون ، واشبيلية وماوالاها جنوبا فى يدا عبادبن، وبطليوس وماوالاها غربا فى يد ابن الافطس . وآلت قرطبة إلى يد الوزير ابن جهور ، ثم دخلت فى حكم ابن عباد .

بذلك الانقسام والتخاذل ثم استرسالهم فى ملاذهم واستسلامهم لشهواتهم واستنامتهم إلى الراحة ، ضعفت فيهم الحمية الدينية والعصبية القومية حتى ضعفت قواهم فكان جزاؤهم ان فقدوا ذلك الفردوس البديع : بلاد الاندلس الخصيبة

بنو الاحمـــــر

ويحسن بنا أن نجمل سيرة بنى الاحمر أو بنى نصر ، فقـد كانوا من صميم العرب الانصار ، الذين ذهبوا إلى الاندلس و يتصل نسبهم بسعد بن عبادة من الخزرج . وأصبحوا من جند أرجونة من حصون قرطبة ، وكان كبيرهم فى أواخر أيام الموحدين هو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بالشيخ وحين ضعف أمر الموحدين قام محمد بن هود بمرسية واستولى على شرق الاندلس فتصدى له محمد بن الاحمر وتغلب على غرناطة سنـة ٦٣٥ ﻫ . وما زال حتى غلب عليـه الادفونش فاستصرخ محمد بن الأحمر يعقوب بن عبـد الحق سلطان المغرب المريني فأرسل إليه جيشـاً دفع به الأسبان ، ثم مات محمد بن يوسف هـذا سنة ٦٧١ ﻫ وقام بالأمر بعده ابنه محمد المعروف بالفقيـه فاستولى على جنوب أسبانيا حتى الجزيرة الخضراء . وأصبـح ذا السلطان عليها حتى مات سنة ٧٠١ ﻫ . وهو من خيرة بنى الأحمر سياسة وهمة ، وتولى بعده ابنه محمد المعروف بالمخلوع ، ثم أخوه أبو الجيوش نصر ، ثم ابو الوليد بن أبى سعيد ابن اسماعيل بن نصر ، وكان بعيد الهمة حسن السيرة شديد القوة عظيم السلطان ، وقتل عام ٧٢٧ ﻫ غدراً بيد أحد أقاربه فى داره ، فتولى بعده محمد ابن أبى سعيد ، وهذا مات مقتولا أيضاً سـنة ٧٣٢ ﻫ فتولى الأمر بعده أخوه ابو الحجاج يوسف ، وقد مات الآخر قتيلا سنة ٧٥٥ ﻫ . طعنه رجل سوقى ، وكان من خيرة بنى الأحمر ، فخلفه ابنه محمد ، فاستبد به حاجبه رضوان وحجبه عن الناس ، فثار أخوه اسمعيل بن يوسف وقتل رضـوانا ونفى أخاه محمداً إلى المغرب ، ثم تولى الملك سنة ٧٦٠ ﻫ . فقـام أبو يحيى من أولاد عمومته وقتله ، واسـتولى على الملك ، ولـكنه لم يلبث أن عاد إليه محمد

ابن يوسف بمساعدة بني مرين باتفاقهم مع ملك قشتالة . وتلقب بالغني بالله . وقويت شوكته وتوطد سلطانه و بالاخص حين اختلف ملوك أسبانيا وأمراؤها مع بعضهم البعض . وبذلك أمكن للغني بالله أن يسترجع كثيراً من البلاد التى استولى عليها الأسبان أيام أسلافه .

والغنى بالله هو الذى استوزر لسان الدين ابن الخطيب صاحب المؤلفات القيمة ، كنفح الطيب وغيره ، وقد أبلى الوزير بلاء حسناً فى خدمة السلطان وصحبه فى نفيه إلى المغرب ، ثم قتله الغني بالله أخيراً لوشاية فيه .

وقد وفد ابن خلدون العلامة المغربى على الغنى بالله سنة ٧٦٣ هـ . وأقام فى خدمته ، وكثيرا ما كان يستعمله فى السفارات بينه و بين ملك الأسبان بأشبيلية . ونجح ابن خلدون فيما عهد إليه به من السفارات . وأقام فى خدمة الغنى بالله ثلاثة أعوام ، واستقال من عمله خشية السعايات والوشايات ، وترك الأندلس إلى المغرب ثم مصر أيام الظاهر برقوق .

وتولى الأمر بعد الغنى بالله ابنه يوسف ثم سعد بن يوسف ، ثم أبو الحسن بن سعد وكان ميالا للهو ضعيف الرأى لا يهتم بأمور الدولة وهو والد ابى عبد الله محمد من السيدة ثريا محظيته الأسبانية على ما يقال . وقيل بل من زوجته عائشة ، وكانت ثريا هذه سبب الفشل الكبير فى الأسرة المالكة لتفريقها بين الأخ وأخيه ، و بين الولد وأبيه . فساعد ذلك على زوال ملكهم .

وكان أبو الحسن يهيم بحب ثريا . وكان له ولدان من عائشة زوجه الأخرى ، هما محمد و يوسف ، فكان يقدم ابن الأسبانية ثريا ، فهرب محمد و يوسف إلى القشتاليين فساعدوهما على شن الغارة على أبيهما ، فكانت له الغلبة عليهما ، وانقطع خبرهما بعدئذ . وقد أسر ولده أبو عبد الله فى

بعض وقائعه مع الأسبان ، وضعف عقل أبي الحسن لانهماكه فى الملذات والشهوات ولكبر سنه ، وأصبح لا يهتم بأمور الدولة فسيرها وزراؤه وفق مشاربهم وأهوائهم ، فساءت حال البلاد . وكانت فى أوائل حكمه سنة ١٤٧٠ م . تتكون من أكثر من مائة مدينة متفاوتة الكبر والاتساع عدا ما كان بها من ضعف ذلك من الأبراج والحصون ، دع القرى والدساكر ، وكان تعداد ملكه أربعة ملايين من النفوس ، انتقص العدو أطرافها شيئاً فشيئا وأصيب أبو الحسن بالصرع والعمى ، فتنازل عن الملك لأخيه ابى عبد الله الزغل وسافر إلى المنكب وبقى فيه إلى أن مات .

وقد أطلق الأسبان أبا عبد الله من أسرهم لمناوأة عمه الزغل فأخذ يشن عليه الغارة تلو الغارة بمساعدتهم . وأخذ الأسبان يستولون على أطراف البلاد الاسلامية ، لانشغال المسلمين بالفتن والدسائس فاستولوا على كثير من البلاد الحصينة المهمة مثل مالقة والمرية .

ورأى المسلمون أن يعرضوا على الزغل وابن أخيه اقتسام ما بقى للمسلمين من بلاد ، يستقل كل واحد منهما بادارة قسم عن الآخر لئلا يتمادى العدو فى انتهاز الفرص السانحة من خلافهما للنكاية بالمسلمين .وخرج الزغل إلى وادى آش ، واستولى أبو عبد الله حليف القشتاليين على غرناطة . إلا أن الأسبان لم يكفوا عن بث دسائسهم فأرسل صاحب غرناطة إلى الزغل من يزيد نار الفتنة أواراً بينه وبين ابن أخيه ، فسار معهم لحربه لغضب فرديناند عليه ، لأنه لم يسلم له فى حصن الحمراء . واستولى القشتاليون على أغلب الحصون التى تحيط بغرناطة ، فسلطوا على الزغل رجلا من بنى الأحمر اسمه يحيى ، كان قد تنصر وكان يعيش فى أشبيلية فخوف يحيى هذا المتنصر من الزغل وحسن له التنازل عن وادى آش

لفردينـــاند نظير مال كثير ، ويذهب إلى بلاد المغرب ليأمن الشر ، وأثر ذلك الارهاب والترغيب فى نفس الزغل ، فقبض المال الكثير وذهب إلى فاس ، فنقم عليه سلطانها مؤازرته للنصارى على المسلمين وصادر أمواله وسمل عينيه ، وبقى فى سجنه حتى مات ميتة شنيعة ، وهو بائس حقير مرذول

أما أبو عبد الله محمد فما زال يدفع جيوش عدوه عن غرناطة حتى أعلنه أهلها بعجزهم عن الدفاع عنها ، وانهم يقبلون شروط الصلح التى عرضها فرديناند ، فاضطر ابو عبد الله ان يسلم مفاتيح غرناطة إلى فرديناند فى ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ ، ثم هاجر ابو عبد الله إلى المغرب وذهب إلى فاس ، وعاش بها كأحد أفراد الناس ، حتى مات بها سنة ٩٤٠ هـ وبقى نسله فيها إلى سنة ١٠٣٧ يصرف إليهم من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمساكين ، وأبو عبد الله هذا هو الذى يعرفه الأسبان والفرنجة باسم بوباديل Bobadil

ومما يذكر أن محنـــة مسلمى غرناطة كانت أيام السلطان بايزيد الثانى العثمانى ، فاتفق هو وقايتباى سلطان مصر حينئذ على مساعدتهم بأن يرسل بايزيد أسطولا إلى شواطىء اسبانيا ، وأن يرسل قايتباى جيشاً من جهة أفريقية ، إلا ان بايزيد انشغل بفتنة أولاده كركود واحمد وسليم ، ووقوع الحرب بينهم ، حتى اضطر للتنازل عن الملك إلى ابنه سليم .

وأرسل فرديناند وايزابلا سفيراً لسلطان مصر قايتباى يسمى السنيور (بطره مارثير) فجعل بمهـارته يقنع قايتباى بالعدول عن إرسال جيشه لمساعدة المسلمين . واكتفى بايزيد وقايتباى بارسال كتب إلى فردنياند وايزابلا و إلى البابا و إلى ملك نابولى بعدم إرهاق مسلمى الأندلس ، وقد عرفنا فيما بعد قيمة تلك الكتب ، فكأنما كانت لتأجيج نار التعصب الأثيم .

وكان المسلمون بالأندلس يستنجدون بسلاطين المغرب كلما اشتد ضغط الأسبانيين عليهم . فكان أولئك السلاطين يرسلون إليهم الجيوش والأساطيل فيكشفون عنهم الضر بعض الشيء . وقد رأينا ما كان من أمر المرابطين والموحدين . ولما ضعف أمر هؤلاء استولى ملوك الاسبان على جل حصون البلاد ومدنها الشهيرة فى القرن السابع الهجرى ، فاستولوا على لوشة وماردة و بطليوس سنة ٦٢٢ هـ . وعلى جزيرة ميورقة سنة ٦٢٧ وعلى قرطبة سنة ٦٣٣ وعلى شاطبة سنة ٦٣٥ وعلى بلنسية سنة ٦٣٦ وعلى مرسية واشبيلية سنة ٦٤٥ وعلى شلب وطلبيرة سنة ٦٥٩ و بقى للمسلمين فى الأندلس غرناطة وضواحيها .

وقد استغاث محمد الثانى الفقيه بسلطان بنى مرين يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٤ فأغاثه بجيش جرار هزم الاسبان . وكان ما كان مما سبق أن ذكرناه

وقد تكررت تلك الاغاثات من المغرب إلى الأندلس . وكان آخرها زمن أبى الحسن المريني سنة ٧٤٠ حيث أرسل جيشا كبيراً إلى طريف ، فسار إليه ملك قشتالة بجيوشه البرية ، وأرسل ملك البرتقال أساطيله البحرية لمحاصرته ، وضيقوا عليه الحصار من كل جهة حتى نفدت منهم الأقوات ، وساء حال جيشه أمام الأعداء الذين هجموا عليهم من كل ناحية فقتلوا منهم مقتلة عظيمة . وفر السلطان أبو الحسن الى سبتة . وكانت موقعة مشئومة على المسلمين هناك ، وهى ثانية واقعة العقاب .

وحدث بعد ذلك الشقاق بين ملوك المغرب ، وكثرت الثورات الداخلية . وكانت فتنة بينهم و بين بنى حفص ملوك تونس واتفق الاسبانيون مع بابا روما على طرد المسلمين من غرناطة فأقرهم على ذلك . فرأوا الحيلولة بين مسلمى المغرب والأندلس باحتلال ثغور العدوة ، فاستولى البرتقاليون على سبتة سنة ٨١٨ هـ واستولى الاسبانيون على جبل طارق سنة ٨٦٩ هـ ثم على مدينة عنابة

(بونة) سنة ٨٦٧ ﻫ واستولى البرتقاليون على قصر المجاز سنة ٨٦٢ ﻫ . وعلى طنجة سنة ٨٦٩ ﻫ وعلى اصيلا سنة ٨٧٦ ﻫ . واشتد الاضطراب ببلاد المغرب لاستمرار الحروب الداخلية والفتن بين بني مرين ، سيما أيام السلطان عبد الحق ابن سعيد . وقد وصل اليهود أيامه إلى الوزارة . وأصبحت الكلمة النافذة لهم لضعفه . فأرهق اليهود المسلمين بالمغارم وأكثروا من ظلمهم ، وحسنوا لابن سعيد الوقيعة ببنى وطاس أحد فروع بنى مرين . وكان منهم الوزراء وعظماء الدولة فقبض عليهم وقتلهم . وفر منهم الشيخ محمد الوطاسى إلى الصحراء . فالتفت حوله قبائل البربر ، وساروا إلى فاس فاستولى بهم عليها سنة ٨٧٦ﻫ . و بقى سلطانا على المغرب الأقصى إلى أن مات فى سنة ٩٦٠ ﻫ . وفى مدته وفد عليه السلطان ابو عبد الله بن الأحمر مع أسرته بعد تسليمه غرناطة ، فأكرم وفادته .

واستيلاء الاسبانيين على ثغور المغرب جعل مسلمى الأندلس فى عزلة تامة عن كل معين . وأصبحت دولة غرناطة محصورة بأساطيل العدو من الجنوب والشرق وبجيوشه من الشمال والغرب . وضيق العدو الحصار على غرناطة حتى استولى عليها سنة ٨٩٧ ﻫ . وخرج حكم أسبانيا والأندلس من يد المسلمين أخيرا بعد أن لبثوا بها ثمانية قرون تقريبا .

وقد عنى الاسبان بانشاء الأساطيل وتدريب الرجال على قتال البحر والبر وكانت بحريتهم فى حكم شارلكان تخرج من جنوة ومن ثغور اسبانيا الشرقية والجنوبية وتقطع الطريق على مراكب المسلمين التجارية واستولت مراكب شارلكان على بجاية ووهران ومدينة الجزائر . وانشأ الاسبان معاقل وحصونا كبيرة على سواحل المغرب .

وكان لأربعة اخوة من تجار الاتراك بعض السفن فكانت مراكب الاسبان تعبث بها . فاتفقوا مع سلطان تونس محمد الحفصى على أن يعطيهم ثغرا من ثغوره يلجأون إليه بسفنهم ويتعقبون سفن الاسبانيين . ويمنعونهم من التطاول على بلاده على أن يعطوه خمس ما يغنمونه منهم .

وكان (خضر) أحد هؤلاء الاخوة رجلا فى منتهى الشجاعة ويعرفه الافرنج باسم ذى اللحية الحمراء « بارباروسا » وكانت له معرفة تامة بالطرق البحرية . فأخذ يتعقب سفن الاسبانيين حتى أخذ منهم بجاية ، ثم استرد ثغر الجزائر سنة ٩٢٢ هـ وبعث بمفاتيحها مع هدية ثمينة إلى السلطان سليم الأول العثمانى فعينه السلطان وزيرا على الجزائر . وبعث إليه بأسطول من أساطيله . وبفرقة من العساكر العثمانية . فاستولى على كل بلاد الجزائر بهذه القوى . وأخذ اسطوله يجوب البحر الأبيض المتوسط ، فكان يلقى الرعب فى قلوب الاوروبيين ، ثم ساروا إلى سواحل اسبانيا وانقذوا كثيرا من المسلمين الذين كان الاسبان يضطهدونهم أفظع الاضطهاد ويذيقونهم ألوان العذاب ، فانضم إلى اسطوله كثير منهم ، وابلوا بلاء حسنا فى حروبهم مع الاسطول الاسبانى ، بقيادة أميرهم البحرى الشهير (اندريا دوريا) وعرف خضر هذا او « بارباروسا » باسم خير الدين باشا وعينه السلطان سليمان القانوني أمير البحر الأكبر للبحرية العثمانية . واشتهرت فى مدته بحروبها وانتصاراتها على أساطيل أوروبا المتحدة . ولولاه لكانت أسبانيا تغلبت على جميع ممالك العرب مدة الملك شارلكان الذى جمع كلمة أوروبا على حرب المسلمين برا وبحرا فانتصر عليهم السلطان سليمان فى الاولى وخير الدين فى الثانية وتم للعثمانيين الاستيلاء على طرابلس سنة ٩٥٠ هـ ثم على تونس سنة ٩٨١ هـ وبذلك تم لهم الاستيلاء على معظم شمال أفريقية وأصبح اسطولهم سيد البحر الأبيض المتوسط

ومع ماوصل إليه الاتراك العثمانيون من القوة فانهم أبوا أن يكرهوا أهالى البلاد المفتوحة من غير المسلمين على أن يعتنقوا الاسلام ، وقد كانوا قادرين على ذلك ، بخلاف فرديناند وايزابلا إذ امرا باضطهاد مسلمى الأندلس بكل لون من ألوان العذاب . واخراجهم من دينهم بعد أن سلمت غرناطة لأيدى الاسبان بعد حصار دام سبعة شهور حتى كان الناس فيها يأكل بعضهم بعضا .

وقد كانت شروط التسليم سبعة وستين شرطا ·أمنوا فيها أهلها على أنفسهم ودينهم وأموالهم وأعراضهم وأملاكهم وحريتهم ، واقامة شريعتهم ، واحترام مساجدهم ومعابدهم وشعائرهم ، وفك اسراهم ، وإجازة من يريد الهجرة منهم إلى بر العدوة ، واعفائهم من الضرائب والمغارم سنين معلومة، وغير ذلك من الشروط التى لم ينفذ منها ولا شرط واحد عقب الاستيلاء على غرناطة مباشرة لتمادى الاسبانيين فى التعصب المذموم . واتوا ما أتوا باسم السيد المسيح الذى جاء بالمحبة والسلام .

فانظر إلى أنظمتهم الكهنوتية التى رتبوها لمحاربة المسلمين ، واسموها بأنظمة فرسان الهيكل . وقلعة رياح ، ونظام مارى يعقوب ، ونظام مارى جرجس ونظام سيدات الفأس . وكان خاصا بالنساء . . . حتى النساء

وزاد تعصبهم ما كان يصدره البابا وات من المنشورات ضد المسلمين ، سيما بعد استيلاء الاتراك على استنبول سنة ٨٥٧ ﻫ . .

ولما ثار جماعة من البيّاذين — وهم من مسلمى الأندلس كانوا بغرناطة ، عرفوا بعزتهم ونخوتهم ، وفتكوا ببعض الحكام — قمع الأسبان تلك الثورة بكل قسوة وغلظة .

وفى سنة ١٥٦٣م ثار فرج بن فرج من سلالة بنى سراج ولجا إلى جبال البشرات

وتبعه عدد غير قليل من غرناطة . وكان منهم «هادونا ندو دوفلور » ، وكان من نسل خلفاء قرطبة ، فنادوا به ملكا عليهم باسم محمد بن أمية ، وعمت الثورة كل نواحى جبال البشرات ، واستمرت الثورة سنتين ، وهى فى منتهى شدتها ، وابلى الطرفان فيها بلاء عظيما . ومات فيها خلق كثير من الطرفين . وخلع المسلمون ابن أمية لهوادته وولوا أمرهم أحد زعمائهم المعروف ببسالته وشجاعته واقدامه . وكان اسمه عبد الله بن أبيه . وظل المسلمون فى ثورتهم حتى غلبتهم كثرة الاسبان فغلبوهم فى نهاية الأمر وشتتوا جموعهم ، وأعملوا فيهم القتل والتحقيق والنكال وعلقوا رأس عبد الله على أحد أبواب قرطبة . وبقيت الرأس معلقة عليها ثلاثين سنة ، واشتد الاسبان فى مطاردة المسلمين على ما كان بهم من شدة فى تعصبهم مما دعاهم للثورة عليهم .

ويقدر البعض عدد من عذب من المسلمين بعد سقوط غرناطة بثلاثة ملايين من النفوس قتل من قتل وحرق من حرق ، ونجا بنفسه من نجا بما معهم من صناعة ومعرفة كبرى بالزراعة والتجارة وخربت غرناطة والاندلس وأوحشت من أهلها الأمجاد .

واضطر من بقى من المسلمين فى الاندلس ممن لم يقدروا أن يهاجروا إلى بلاد إسلامية أن يتنصر وأن يتدجن وعرفوا بالمُدَجنين Mudejares ومع ذلك أسىء الظن بهم وعوملوا أسوأ معاملة .

أما من هاجر منهم إلى بلاد المغرب فحملوا معهم علومهم فنونهم وصنائعهم ، فنهضت بهم الزراعة فى تونس ، وظهرت بها الصناعة ونشطت حضارتها لقدومهم ، وعمرت بهم الديار وبنوا البنايات على الطراز الاندلسى ، وعمروا العمارات على أحسن شكل هندسى ولا يزال إلى الآن كثير من الاسماء الاندلسية معروفا بين الاسر التونسية وغيرها إلى اليوم ، على ما سمعت من

بعض علمائها كالسيد الخضر حسين التونسى المتمصر ، وذكر لى بعضا منها على سبيل المثال عندما سألته عن ذلك ·

أما من اضطر إلى البقاء بأسبانيا والبرتقال من رجال الفن من المسلمين واليهود فقد عوملوا معاملة يأنف منها العبيد الارقاء واضطرهم ، الاسبان لنحت التماثيل فى الكنائس وبنائها وتجديد بعض الآثار الفنية الاسلامية مما لا يمكن لغيرهم عمله . وقد بقى الكثير من آثارهم يملأ دور الآثار بأسبانيا من نحاس مكفت بالذهب والفضة والعاج المنقوش .

وبقيت فى البلاد بقية ممن تنصر من المسلمين يسمونهم (مورسك Mauresque أعنى المغاربة السود) اندمجوا فى الاسبان والبرتقال وتكلموا لغتهم ، ولكنهم حافظوا على لغتهم العربية من جهة أخرى ، فكتبوها بالأحرف الاسبانية ، ويسمونها الخميادو ، ولا تزال فيها كتب كثيرة مكتوبة بالأحرف الافرنكية .

وقد أصبحت لغة أخرى جديدة غير العربية لما دخلها من التحريف والتصحيف كشأن اللغة المصرية القديمة لما كتبت بحروف إغريقية ، ودخلها ما دخلها من التغيير . (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ولقد رأيت أن الانقسام الذى حدث فى جسم الامة الاسلامية بين قبائل العرب أولا ، وبين العرب والبربر وغيرهم من العناصر الاخرى ، وبين أفراد الاسر المالكة ، وتهالكهم على الملذات والشهوات ، وغير ذلك من عوامل الضعف هى التى مكنت لجراثيم الاسبان التى لم يطهرها المسلمون من جزيرة إيبريا حين ملكوها ؛ كما كان رأى طارق أن يفعل بمن بقى من سكانها الاصليين وأن تكون جبال البرانس (البيرينات) كلها فى يد المسلمين حتى يأمنوا شر تلك الجراثيم وهى قليلة سكنت الشمال الغربى من أسبانيا قرب خليج غسقونية (جاسكونيا)

على نهر دافا ، كان يسميه المسلمون بالصخرة والاسبانيون يسمونها كوفادونجا لجأ إليه فلول من القوط مع من بقى منهم واندمج فى البشكنص (الباسك) وانتخبوا رجلا منهم من سلالة لذريق آخر ملوك القوط اسمه بلايو ليكون أميراً عليهم ، وكانت هذه الفلول تعتصم بما فى تلك الجهة من الحصون والمعاقل الطبيعة و يستميتون فيها دفاعا عن وجودهم وحياتهم . و إن كانوا يتظاهرون أحياناً بالطاعة والاخلاص للمسلمين . وقد يرشدونهم إلى عورات الفرنجة فيما وراء جبال البرانس ، بل و يساعدونهم عليهم، وكانوا يدفعون بذلك عنهم الفرنجة من الشمال والمسلمين من الجنوب .

و بقى أمرهم على هذا المنوال حتى كونوا لهم دولة سموها ليون ، أقاموا فيها ملكا منهم . ثم أخذت دولتهم هذه فى الاتساع إلى الجنوب الشرقى حتى عرفت باسم قشتالة فقام أمير منهم برعايتها ، عرف باسم ملك قشتالة بعدئذ . وكانت قشتالة تمتد حدودها شرقا ببطء حتى ظهرت مملكة ثالثة اسمها نبره (نافارا) .

ثم ظهرت دولة أراجون فى الشمال الشرقى للبلاد . وأخذت تلك الدول الاربعة تدس للمسلمين دائما بواسطة ولاة الاطراف والحدود و يوقعون بينهم فيعلن الواحد منهم الحرب على الآخر ، و يغيرون على حدود بعضهم البعض فتضطرب الاحوال. وقد يتعدى الاعتداء الطرفين، فيسير الامير أو الخليفة جيشا لتهدئة الحدود والاطراف، وقد ينتهز مسيحيو الشمال هذه الفرص للاغارة واقتطاع الارض من الاطراف والحصون فى الحدود والقلاع . وهكذا لم تتمتع البلاد بالطمأنينة والسلام لوجود تلك العوامل الهدامة الدساسة من منتصف القرن الثانى للهجرة إلى منتصف القرن الخامس إلا قليلا . وكل هذا من كيد ملوك قشتالة وليون وأراجون ، إلا إذا وقعت بين هؤلاء الوقيعة فيضعف أمرهم حينئذ ويضطرون لدفع الجزية للخلفاء أو لامراء المسلمين ، كما حدث أيام عبد الرحمن

الناصر [١] إلى أن انتهى أمر الامويين بذهاب ملكهم . ثم كانت ملوك الطوائف الضعفاء المساكين بينما كان أهل الشمال يزحفون جنوبا ويحتلون البلاد من المسلمين ويملكونها حتى قضى الامر وتسلموا مفاتيح غرناطة ولم يبق للمسلمين من ذلك الملك الكثير إلا الذكرى المؤلمة .

نشير على القارىء بمطالعة رحلة الاندلس لمحمد لبيب بك البتانونى اول طبعة بمطبعة الكشكول سنة ١٩٢٧ لما حوت من وصف مشاهد واخبار تلك البلاد وصفا شيقا يدل على غزارة المادة

٣ — مجموعة مراسيم ملكية

لاضطهاد المسلمين ومطاردتهم

قد أورد للورنتى نص سلسلة من الأوامر التى أصدرها عاهلا أسبانيا ، نقلا عن المجاميع الرسمية الملكية ، و إلى القارىء مختصر تلك الأوامر :

١ — فى يوم الثلاثاء ، اليوم العشرين من شهر يوليو سنة ١٥٠١م الموافق ٤ المحرم سنة ٩٠٧هـ صدر أمر من الملكين بمنع وجود المسلمين فى مملكة غرناطة وقد اختارهما — أى الملكين — الله لتطهيرها من (الكفرة) . كما انه يحظر عليهم — أى المسلمين — ان يتصلوا بغيرهم خشية ان يتأخر تنصيرهم ، و يحظر عليهم أيضا الاتصال بمن تنصروا لئلا يفسد عليهم إيمانهم بمخالطتهم ، وكل من خالف تلك الأوامر فجزاؤه الموت وتصادر أملاكه .

٢ — فى الثلاثاء الثاني عشر من شهر فبراير سنة ١٥٠٢م (١٣ رمضان سنة ٩٠٨ هـ) صدر أمر ملكى آخر يحتم على كل مسلم حر يبلغ الرابعة عشرة سنة من عمره ، إن كان ذكرا ، والثانية عشرة من سنها ، ان كانت أنثى أن يغادر مملكة غرناطه قبل أول شهر مايو التالى . على أنه يسمح لمن يريد الخروج أن يتصرف فى ماله وأملاكه على أن لا يكون الخروج إلى أفريقية التى كانت فى حرب قائمة مع أسبانيا ايامئذ . وليكن الخروج إلى بلاد أخرى .

وكل مخالفة للامر تجعل صاحبها عرضة للموت والمصادرة . ولتمييز الارقاء من الأحرار تقيد أرجلهم بقيود من حديد متى عرفوا .

ولوحظ أن كثيرا من متنصرة العرب ، وهم الذين تظاهروا باعتناق النصرانية كانوا يبيعون أملاكهم و يفرون إلى أفريقية فصدر أمر جديد :

٣ — فى اليوم الثانى عشر من شهر سبتمبر سنة ١٥٠٢م (يوافق يوم ١٩ ربيع الأول سنة ٩٠٩ هـ.) صدر أمر ملكى يحظر على الناس التصرف فى املاكهم قبل مضى عامين كما يحظر عليهم أن يغادروا مملكة قشتالة إلا إلى مملكتى الأراجون والبرتقال

ويجب أن لا يعزب عن البال تقرير حقيقة ما كان يبغيه الأحبار والقساوسة وملوك أسبانيا وما جاورها، وهو انهم كانوا يعرفون تمام المعرفة بأن المسلم أو اليهودى لا يرضى بدينه بديلا: فكانت سياستهم ترمى إلى الابادة ومحو الأثر. وقد أصدروا من الأوامر ما اصدروا وأقاموا المحاكم الفظيعة وصادروا ونهبوا وهتكوا الأعراض، وأذلوا وخسفوا الأرض بمن عليها من غير معتنق الكثلكة بشتى الطرق وضروب التفنن فى التعذيب والنكال. فمن تنصير غير الكاثوليك ومراقبة اولئك المتنصرة مراقبة الأبالسة واختلاق التهم وترتيب المؤامرات السرية والعلنية لمحاربة من اعتنق الكثلكة أو تظاهر باعتناقها

أنظر إلى الكردينال كمنيس، فانه أراد أن ينصر كل المسلمين واليهود. ويقال: إنه أرغم خمسين الف مسلم على أن يعتنقوا مذهبه. ولكن هذا لم يغنهم فتيلا ولم يمنعه أن يأتى بضروب العسف لهم ويتفنن فى تعذيبهم. والملك فرديناند الذى كان يتظاهر بالمحافظة على اليهود قد رؤى فى أواخر أيامه أن آلافا مؤلفة قد أجبروا على اعتناق النصرانية، وأن الوفا قد آثرت فقد كل شىء من حطام الدنيا على الردة، فتركوا أوطانهم وتفرقوا فى ثغور أفريقية. ولم يبق بقشتالة الا المتنصرة فحسب.

وجاء بعد كمنيس الدون الفونسو مانريك، وأصبح كبير المفتشين، وكان شديد التحمس لمقاومة ما كان يسمى بالكفر فى تلك العصور، ومعنى ذلك: التدين بغير الكثلكة أو المروق عنها. وكان يأخذ خصومه بأقل شبهة، سواء

كان من منتصرة المسلمين أو ممن تنصر من اليهود ، أو ممن كان على مذهب مارتن لوثر ، أو كان من المفكرين الاحرار ، أو غير ذلك . ولم يكن لاحد من هؤلاء إلا جزاء الاعدام تعذيبا وحرقا

وقد أصدر مانريك الأوامر الآتية :

إن كل مسلم تنصر يعد كأنه قد ارتد إلى الاسلام ، إذا مامدح دين محمد أو قال : إن يسوع المسيح ليس بآله ولم يكن إلا رسولا . أو قال : بأن صفات مريم العذراء أو أن اسمها لا تليق بأمه . وعلى هذا يجب على كل مسيحى أن يبلغ ما يعلم من تلك الأمور ، كما أنه يجب عليه أيضا أن يبلغ عما يكون قد سمعه أو رآه من متنصرة المسلمين إذا هم زاولوا بعض العادات الاسلامية ، كأن يأكل اللحم يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك يباح له . أو إذا احتفل متنصر بيوم الجمعة بأن يرتدى ثيابا أنظف من ثيابه العادية ، أو أن يولى وجهه شطر الشرق قائلا : باسم الله، أو إذا أوثق أرجل الحيوان قبل ذبحه . أو رفض أكل لحم مالم يذبح ، أو ما ذبحته امرأة ، أو ختن اولاده ، أو سماهم بأسماء عربية ، أو أعرب عن أمنيته من اتباع تلك السنة ، أو إذا قال : بانه يجب ألا يعتقد انسان إلا فى الله وحده ، وان محمدا عبده ورسوله، أو إذا أقسم بما فى القرآن ، أو إذا صام شهر رمضان وتصدق خلاله ، وكان لا يأكل ولا يشرب الا عند الغروب ، أو إذا تسحر ليلا أو قام للوضوء ، أو إذا صلى وولى وجهه شطر المشرق ، أو إذا ركع أو سجد وتلا شيئا من القرآن ، أو إذا تزوج وفقا لما توجبه الشريعة الاسلامية أو إذا أنشد أغاني عربية ، أو أقام حفلات للرقص أو للموسيقى العربية ، أو إذا اتبع قواعد محمد (يريد الاسلام) الخمس ، او إذا لمس بيده على رؤوس اولاده أو غيرهم تنفيذا لتلك القواعد (وليس هذا من الدين) أو إذا غسل الموتى وكفنهم فى ثياب جديدة ، أو دفنهم فى أرض بكر ، أو وضعهم فى قبور من الحجر

مضطجعين على جنوبهم واسند رؤوسهم الى حجارة ، أو إذا غطى قبورهم بالغصون الخضراء ، أو استغاث بمحمد عند الحاجة . وقال : إنه نبي ورسول الله (وليس ذلك من الاسلام . فان الاستغاثة لا تكون إلا بالله وحده) أو إذا قال بأن الكعبة هى أول بيت من بيوت الله . أو إذا قال : بأنه لم يتنصر وهو يؤمن بالدين المقدس (المسيحية) أو قال بأن آباؤه واجداده قد فازوا برضا الله وقد ماتوا على الاسلام .

ونصت تلك الاوامر بأنه يجب على المسيحيين ان يبلغوا ماعرفوه عن المتنصرين إذا هم هاجروا إلى افريقية او غيرها من البلاد ليرجعوا إلى دينهم القديم وأنهم ارتدوا عن كثلكتهم .

وقد رفع المتنصرة ظلامتهم إلى ما نريك فى برغش عام ١٥٢٤م (يوافق سنة ٩٣٠هـ .) مذكرينه بما قطع لهم من عهود أن لا يقدم أحد منهم إلى محاكم التفتيش إلا لتهم خطيرة

ويقال : بأن المجلس الأعلى للتفتيش ؛ وافق أو أظهر الموافقة على وجهة نظرهم ، وأمر بالافراج عن متهمين لم تثبت عليهم أى تهمة ثبوتا تاما .

والواقع أن هذا الأمر هو تحصيل حاصل على مايقولون ،لأنه يجب الافراج عن المتهم اذالم تثبت ضده تهمة .

نفذت تلك الأوامر ، وطبقت تلك القوانين على المسلمين وعلى المتنصرة بمملكة قشتالة مملكة إيزابيلا ، وأمن مانريك مسلمى مملكة الآراجون منها حينا ، لأن طبقة الآشراف ؛ وأرباب الضياع والمزارع فيها رأوا فى تنفيذها خراب تلك الضياع وتعريض أملاكهم ومواردهم للضياع . وقد لمحوا للملك بذلك . فتعهد الملكان بعدم التعرض للمسلمين ، كما تعهد الملك شارل الخامس بذلك سنة ١٥١٩م (يوافق سنة ٩٢٥ هـ .) لمجلس النواب .

ثم قامت حرب أهلية بمقاطعة بلنسية بين جماعة الأشراف والكافة من الناس ، فرأى هؤلاء أن يعمدوا إلى اضطهاد المسلمين الذين كانوا فى كنف النبلاء الأشراف ، وتحت رعايتهم نكاية فيهم . وكانوا يعلمون ان المسلمين هم أعوان الأشراف ، وعليهم يعتمد هؤلاء فى أعمالهم وفى مزارعهم . فاضطهد الكافة المسلمين أينما كانوا وطاردوهم واجبروهم على اعتناق المسيحية . وقد تنصر بضعة آلاف منهم خشية العذاب المقيم والاضطهاد السائد .

وهدأت الفتنة ورجع جل المتنصرين إلى حظيرة الاسلام وهاجر آلاف منهم إلى الجزائر . فاتخذ الملك ذلك ذريعة لاظهار غضبه وإنزال نقمته على الباقين فى مملكته واخذ على نفسه أن لا يدع مسلما فى بلاده ، ورجا البابا أن يجعله فى حل من نقض عهده الذى كان قد أخذه أن لايتعرض للمسلمين . فرسم البابا فى الثانى عشر من شهر مارس عام ١٥٢٤م (يوافق ٦ جمادى الأولى سنة ٩٣٠ هـ .) بحث رجال التفتيش قضاته ومفتشيه بأن يعجلوا باجبار المسلمين على اعتناق المسيحية الكاثوليكية . ومن أبى من المسلمين فعليه أن يخرج من أسبانيا ، وأمهلوهم مدة ، فمن لم يعتنق المسيحية أثناءها كان جزاؤه أن يصبح رقيقاً عبداً ما عاش .

وأمر البابا فى ختام مرسومه بجعل كل المساجد هناك كنائس .

وعقد شارل الخامس اجتماعا حضره أعضاء من مجلسى قشتالة والأراجون ومجلس الهند ومن القساوسة والأحبار والمفتشين والقواد العظام

ونظر الحاضرون فيما يجب عمله بعد صدور أمر البابا الأخير ، أيطبق على من اعتنق منهم المسيحية ، وهو مكره من قبل ، أم يطبق عليهم من جديد ؟

وبعد أن تشاور الجمع فى الأمر مليا أجمعوا على ان مسيحية المتنصرين صحيحة لاشك فيها . وأنه يجب على كل المتنصرين أن لا يبرحوا أسبانيا ،

لأنهم مسيحيون ، وأجبروا على تعميد أولادهم ، كما أنهم امروا بالذهاب إلى أكبر كنيسة فى بلنسية ليطهروا مما كانوا عليه من الكفر والارتداد . ولما عادوا من الكنيسة علموا بان من يرجع عن مسيحيته يحكم عليه بالاعدام وتصادر امواله

ومن ذلك الحين حولت كل المساجد الى كنائس وحرم عليها ان يتلى فيها اسم الله وان تقام فيها صلاة إسلامية .

لم يجد المسلمون مناصا من ان يلجأوا إلى الجبال يحتمون فى ذراها ومغاورها ، وان يثوروا زمنا ثم عادوا للسكينة . وقد اصدر الملك امراً بالعفو عنهم . وكتب إلى زعماء المسلمين ببلنسية يحضهم على اعتناق المسيحية ، وانهم إن فعلوا كانت لهم منه الحماية والعون ، وان تكون لهم كافة الحقوق التى للمسيحيين طبعا . وأكد لهم انه سيفى لهم ويحفظ عهده معهم ، مهما كان الأمر.

إلا ان سلسلة الاضطهادات لم تنقطع بعد . فقد صدر امر إلى متنصرة المسلمين فى اليوم الحادى والعشرين من شهر اكتوبر سنة ٥٢٥ م (يوافق ٤ المحرم سنة ٩٣٢ هـ) يحظر عليهم بيع الذهب والفضة والحرير والحلى والاحجار الثمينة والمواشى ، وأشياء أخرى ذكرت فى المرسوم .

ثم أعقب ذلك أمر صدر فى الثامن عشر من الشهر التالى يوافق ٢ صفر سنة ٩٣٢ هـ يوجب على المسيحيين ان يبلغوا الديوان المقدس كل ما يأتيه المتنصرون من ردة أو مخالفة للمسيحية ، أو ما يوجب الشبهة فى سلوكهم . وألزم المسلمون بوضع شارة زرقاء فى قبعاتهم ، وبتسليم كل أسلحتهم ، وحظر عليهم حيازة شيء منها بعد . ومن ضبط منهم معه سلاح فجزاؤه الجلد . وألزمهم السجود فى الطرقات إذا مامر أمامهم حبر كبير وألزموا أن لا يجهروا بشعائرهم إذا أقاموها وأن يغلقوا مساجدهم وجوامعهم .

ولم يلبثوا أسبوعا واحدا حتى فوجئوا فى الخامس والعشرين من الشهر عينه بصدور أمر يوجب عليهم مغادرة اسبانيا قبل نهاية شهر يناير سنة ١٥٢٦ م (يوافق ربيع الثانى سنة ٩٣٢ ﻫ) من طرق فى الشمال عينت لهم فى الأمر .

ونص المرسوم على أن كل من يبقى أحدا منهم فى ضياعه فجزاؤه الغرامات الفادحة .

فثار المسلمون لهذا ، سيما من كان منهم فى مقاطعة قورية . وعمت الثورة كل مقاطعة بلنسية .

ويقول بعض المؤرخين العارفين : بأن عددهم كان يربو على ستة وعشرين ألف أسرة ، لجأ كثير منهم إلى الجبال ، ولبثوا يقاومون جنود الحكومة التى أرسلت اليهم ، وذهب وفد ممن رأوا فى السلم أمنا أو شبه أمن إلى حاكة بلنسية وكانت تسمى بالأميرة « جرمين ده فوا » فحولت المسألة إلى بلاط الملك لعرض مطالبهم .

ومثل الوفد بين يدى الملك ورجاه أن يمهل المسلمين خمس سنين ، لاعتناق المسيحية ، أو فليغادروا المملكة من ثغر القنت . فرفض الملك هذا الرجاء .

فعرض الوفد أن يتنصر المسلمون على شريطة أن لا يحاكموا أمام ديوان التفتيش قبل مضي أربعين سنة . فرفض الملك هذا أيضا .

فذهب الوفد إلى مانريك رئيس ديوان التفتيش الأكبر . وقدموا اليه مذكرة يعرضون فيها اعتناقهم المسيحية على شروط منها :

١ — ألا يطبق عليهم قضاء الديوان قبل مضى أربعين سنة .

٢ — أن يحتفظوا خلال الاربعين سنة بأزيائهم ولغتهم .

٣ — أن يسمح لهم بمدافن خاصة بهم .

٤ — أن يسمح لهم بالتزوج من أقاربهم وحتى من نبات أعمامهم طيلة هذه المدة .

٥ — أن تعتبر كل العقود القديمة صحيحة .

٦ — أن يستمر رجال الدين منهم على القيام بأعمالهم وأن يعهد إليهم في قبض ريع ما كان للمساجد التى قلبت إلى كنائس .

٧ — أن يسمح لهم بحمل السلاح كبقية المسيحيين .

٨ — أن تخفض الضرائب التى يدفعونها إلى السادة ، وأن تكون معادلة لما يدفعه المسيحيون .

٩ — أن لا يدفعوا ضرائب بلدية بالمدن الكبيرة إلا إذا اختاروا الاشتراك فى تولى أعمال المدينة وأن يتمتعوا بكل ما يتمتع به المسيحيون من الحقوق .

ولما عرضت تلك المطالب على مجلس الدولة كانت إجابته ما ملخصه :

١ — أن تتخذ كل الاجراءات التى اتخذت ازاء المتنصرين من المسلمين بمملكة غرناطة ، مع اخوانهم فى المحنة ببلنسية ومملكة الاراجون .

٢ — أن يسمح لهم بالاحتفاظ بأزيائهم ولغتهم مدة عشر سنين .

٣ — أن يسمح لهم بمدافن خاصة على شرط أن تكون قريبة من الكنائس ، وأن يسمح بدفن المسيحيين الاصليين بها .

٤ — عدم الاعتراض على عقود الزواج القديمة . ولكن كل عقد جديد يجب فيه اتباع الشعائر المسيحية .

٥ — يحتفظ رجال الدين المتنصرين بقبض ريع ما للمساجد التى حولت لكنائس بنسبة ما يبدونه من الجهد فى تنصير اخوانهم المسلمين .

٦ — أن يسمح للمتنصرين بحمل السلاح أسوة بالمسيحيين الأصليين .

٧ — أن يسوى بينهم و بين المسيحيين فى دفع الضرائب إلى السادة . وأر باب الضياع وفى الضرائب الأخرى .

٨ — أن تستمر الحالة فى المدن كما كانت بالنسبة إليهم .

٩ — ان لا تفرض عليهم ضرائب لم تفرض من قبل .

* * *

فرأى المسلمون فى ذلك أكثر ما يمكن الحصول عليه فى أمثال تلك الشدائد . فاذعنوا ، وأقبل كثير منهم على اعتناق المسيحية ، إلا أقلية اعتصمت بالجبال ، وأصرت على الثورة . فجرد الملك جيوشه عليهم ، فما لبثوا أن سلموا وأرغموا على اعتناق المسيحية ارغاما . ودفعوا مبالغ طائلة فدية أنفسهم من الرق

* * *

ولم ينثن الديوان ببلنسية عن غيه . وكان يطمع فى القضاء على الجالية الكبيرة من متنصرة المسلمين هناك . واشتد الديوان فى مطاردتهم واضطهادهم من حين إلى حين. فكان المسلمون يلجأون إما إلى المقاومة وإما إلى بذل المال فدية عن أنفسهم . وسعى لمساعدتهم أحد المتنصرين من المسلمين المدعو كوسمى بن عامر . وكان له نفوذ بالبلاط الملكى لاتصاله به ، لأنه كان من النبلاء . فصدر أمر ملكى فى سنة ١٥٧١ (يوافق سنة ٩٧٨ — ٩٧٩ ﻫ) وفيه معنى العفو عمن ارتد منهم عن المسيحية هم وذريتهم من مصادرة الأموال ، اذاهم ارتدوا . ولم يستثن من ذلك رجال الدين والفقهاء ، ومن اختتن منهم ومن اتهم وكان رهن المحاكمة ، فلا مصادرة إذا قبض عليهم

وفى نظير ذلك تعهد المتنصرون أن يدفعوا لخزانة الديوان خمسمائة والفين من الدوكات كل سنة

على أن هذا الأمر لم يظل عهده أكثر من ربع قرن ، حتى عادت المحاكم إلى شدتها ، والديوان إلى اضطهاداته ، ورأى اشراف الاراجون وذوو الضياع والمزارع فيه أن الخير كل الخير لهم إذا لم يحدث ببقية بلاد الاراجون ما حدث ببلنسية ، وخشوا على مصالحهم ، فجل المسلمين فيها كانوا يفلحون أراضى الملك وأراضيهم. وفيهم مهرة الصناع . وهم مع ذلك لا يأتون جريمة ، بل وادعون مسالمون ، يكدون و يكدحون . وقد أفهموا الملك ذلك ، وأفهموه أن لا داعى لاجبارهم على اعتناق المسيحية . فالاضطرار لا يعنى التعلق بأهداب الدين الجديد والاخلاص له ولكن جهود الاشراف وكبار الملاك كانت غير مجدية عند ملك لا يرعى عهودا قطعها على نفسه .

وقد أصدر فى سنة ١٥٢٦ أوامره لديوان التفتيش باجبار مسلمى بلاد الاراجون كلها على التنصر . وقد نفذت تلك الأوامر ، ولم يقاوم المسلمون هناك وقضى الأمر، إذ نفذت بذلك سياسة التنصير فى كل أرجاء أسبانيا . ورجا أعضاء مجلس النواب من الملك أن يصفح عن المتنصرين إذا ما كان ذنبهم طفيفا أو اتهموا بتهم تافهة ، لحداثة عهدهم بدينهم الذى اجبروا على اعتناقه . فرسم الملك فى أواخر سنة ١٥٣٠ ، لكبير المفتشين يأمره فيه أن يعفو عن الأوابين و يغفر زلات المتنصرين ، إذا ما حسنت نياتهم .

* * *

وكان دون فرديناند بنجاس ودون ميشيل داراجون ، وديجولو بيز بنشارا من مقدمى المتنصرين عندهم لانتسابهم إلى أمراء غرناطة وسلاطينها السابقين . وكانوا قد أجبروا على اعتناق المسيحية لما غلب المسلمون على أمرهم فى غرناطة ، يوم

تسليم أبي عبد الله الزغل ـ تقدم اليه ثلاثتهم خلال سنة ١٥٢٦م (سنة ٩٣٢ هـ) إلى الملك لما زار غرناطة ، برجاء .

وذكروا فى رجائهم شدة اضطهاد القساوسة ورجال التفتيش والمسيحيين الاصليين لمتنصرة المسلمين .

وعهد الامبراطور إلى أسقف قادس على رأس لجنة تحقيق تطوف أعمال غرناطة ، وترى مظالم المتنصرين . وأتمت اللجنة أعمالها ، وقدمت تقريرها مؤيدة صدق ما قاله الثلاثة ، وعزت الاضطهادات إلى رجوع جل المتنصرين إلى الاسلام ، وأن القليل منهم هو الذى حافظ على الدين الجديد .

أظهر الملك اهتماما ، وعقد مجلسا من المطارنة يرؤسه كبير مفتشى الديوان ، وبحث المجلس المسألة المعروضة عليه ، وقرر نقل محكمة التفتيش من جيان إلى غرناطة . ورسم الملك بالصفح عن المتنصرين وعما تقدم من ذنبهم . أما من عاد إلى الردة عن المسيحية فجزاؤه شديد العقاب من الديوان .

وأذعن المتنصرون إلى الأوامر الملكية وما فرضته عليهم لجنة المطارنة . ولم يسلموا من دفع الأموال الطائلة للملك ليكون لهم الحق فى ارتداء أزيائهم القديمة ، وليعفوا أنفسهم من مصادرة الديوان لأموالهم إذا ما اتهموا بالردة .

وكان نصيب المتنصرين بالاراجون مثل نصيب إخوانهم بغرناطة

ورسم الملك بأوامر عدة وقوانين كثيرة .

ومن ذلك : مرسوم صدر عام سنة ١٥٣٤ م (سنة ٩٣٠ هـ) يحظر على محاكم التفتيش ببلنسية مصادرة أموال المحكوم عليهم من المتنصرين المتهمين بالردة ، وأن تدفع تلك الأموال إلى ورثتهم . ورسم الملك عام ١٥٤٣ (يوافق سنة ٩٤٩ — ٩٥٠ هـ) يمهل فيه المتنصرين فى الميدو واريفالو مهلة ليعودوا إلى حظيرة الكنيسة .

والتمس من البابا سنة ١٥٤٤ م (سنة ٩٥١ هـ) أن يصدر قرارا بأن يكون لمتنصرى غرناطة الحق أن يتولوا هم وأبناؤهم الوظائف المدنية ، حتى ولو اتهموا بالردة أكثر من مرة ، وأن تكون لهم كافة الحقوق والامتيازات الكنسية ، وأن لا ينظر فى كل القضايا المقامة على المتنصرين أمام محاكم التفتيش .

وأصدر فى سنة ١٥٤٨ م (٩٥٥ هـ) أمرا لكبير المفتشين فالديس : أن يصدر لائحة جديدة ، يسمح بمقتضاها للمتنصرين أن يعودوا إلى حظيرة الكنيسة ، دون أى احتفال علنى ،وأن تكون دار المتنصر بين دارين للمسيحيين الأصليين ، ويحرم عليهم استخدام المتنصرين الجدد . ويسمح لأبنائهم الذكور أن يتزوجوا من بنات المسيحيين الأصليين إذا ماتزوجت مسلمة متنصرة من مسيحى أصيل وحكم على وليها الذى دفع لها المهر بمصادرة أملاكه بتهمة الكفر والالحاد ، فان كانت هذه التهمة قد ارتكبت قبل دفع المهر . فلهذه المتنصرة من المسلمين أن تدفع باستثناء مهرها من المصادرة .ومثل هذا إذا ماحمل متنصر من المسلمين مالا الى أسرة زوجه ، فله أن يحتفظ بماله ، حتى ولو حكم بمصادرة أموال من أعطى المتنصر المال .

ومات شارل الخامس وهو يعامل المتنصرين أحيانا بالشدة وأحيانا يمزج الشدة باللين .

وتولى من بعده ولده فيليب الثاني الشديد التعصب للكثلكة ، ولكنه كان يرى من جماعة المتنصرة نشاطا وقدرة على فهم العلوم واجادة الفنوق . وكان ديوان التفتيش لا تهدأ ثائرته ابدا ضد أولئك المساكين ، كما ان الديوان ورجال الدولة كانوا يؤثرون المسيحيين الأصليين على أولئك المتنصرين البائسين ولهذا كان أولئك المتنصرون يتسللون إلى أفريقية ، كلما لاحت لهم بارقة أمل فى الهروب من أسبانيا المتعصبة .

ولم تفد محاولة الملك لاستبقائهم ، لان رجال الديوان كانوا لا يرون رأيه وكان كلما أصدر قانونا قاوموه وتجاهلوه ، وعملوا ضده . فقد أصدر الملك قرارا يبيح فيه للمتنصرة أن يتوبوا على يد القسيس توبة سرية فتقبل توبة التائب، فلا عقاب ولا مصادرة

وكان القساوسة والأحبار يخفون ما يصدر الملك من أوامر وقوانين فى صالح المتنصرين ، فلاينتفع بها أحد . وكانت إرادة الديوان هى الغالبة . وكانت فوق رأى الملك . والويل والثبور لجماعة المتنصرين .

* * *

واشتد الديوان فى تتبع المتنصرين واضطهادهم فمن تكلم العربية ، أو استحم . أو حجب النساء ، أو لبس الازياء الاسلامية . وكل من تلهى بالرقص كان كأنه أقام الدليل على ردته وكفره ، والويل له من التعذيب .

وأخذ صغار الأولاد والبنات من آبائهم المتنصرين ، وعهد بهم إلى المدارس والكنائس ، ليشبوا فيها وهم لايعلمون شيئاً عن العربية ولا الاسلام . واستبيح كل شىء مع المتنصرين حتى اضطروا إلى أن يجتمعوا جماعات سرية ويتواطؤا على الثورة دفاعا عن النفس والعرض واللغة والدين . وأوفدوا بعض زعمائهم خفية إلى أفريقية ، وطاف البعض بجبال البشرات لبث الدعوة للثورة . وساء حظهم لما ضبطت بعض كتبهم التى تبادلوها مع سلاطين وأمراء المسلمين بأفريقية . وكان فى تلك الكتب أن الحكومات الاسلامية بأفريقية قد استفزتها حالة أسبانيا ، حتى إنهم رأوا أن يبعثوا بالجند إلى ماربلة والمرية . فأخذت أسبانيا حذرها وعززت ثغورها ، وشددت الرقابة على شواطئها . ولكن رجال المؤامرة لم ييأسوا بعد . ولم تفتر عزيمتهم . فاجتمعوا فى إحدى ضواحى غرناطة فى اجتماع

سرى واختاروا محمد بن أمية زعيما لهم، يتولى كبر الثو ة وقيادةالقوم . وكان الزعيم من سلالة الأمويين ، وقد أجبر على اعتناق المسيحية وأسموه فرديناند دىفالور .

ونزح المتآمرون إلى جبال البشرات و بدأوا باعلان ثورتهم هناك ، وانضم إليها سكان تلك المنطقة . وقد تغلبوا على جنود الحكومة التى أرسلت لأخماد ثورتهم .

وقد اقتحموا الكنائس والأديرة وقتلوا قساوسة وأحباراً ممن كانوا يكيدون لهم ، واستفحل أمر الثورة . فاضطرت الحكومة إلى تجريد حملة كبيرة على البشرات لتحيط به من كل ناحية ، وحمت الحرب وكانت مواقع عربية مشهودة سنة١٥٦٩ م (سنة ٩٧٦ - ٩٧٧ هـ) ولكن جنود الحكومة أمكنها أخيراً أن تنفذ إلى مراكز الثائرين ، فاعتصم هؤلاء برؤوس الجبال ، ووصلت إليهم جماعات من الرجال نجدة من أفريقية استطاعوا الوصول رغم كل رقيب على الشواطىء . وظلت الحرب سجالا بين الجنود والثوار .

فاضطر الملك أن يرسل جيشاً كبيراً قائده أخوه الدون جوان ، فسار من اشبيلية فسارعت البيازين وغيرها إلى الخضوع ، ولكن بقية إخوانهم الثائرين عزموا على أن يقاتلوا أو يقتلوا . وكان قتالهم قتال المستيئس المستميت .

وقتل ابن أمية غيلة أثناء الثورة . فانتخب الثوار مولاى عبد الله عوضاً عنه . وظلت الحرب مستعرة طيلة الشتاء .

ورأى قائد جند الحكومة أن يعمد إلى سياسة المكر والمخادعة . فلجأ إلى المفاوضة وأذاع أمراً بالعفو العام لمن يلجأ إليه ، وأن يمنح المتنصرين شروطاً حسنة للصلح ، إذا هم أذعنوا ولم يقاتلوا . فأثر ذلك فى بعض الثوار الذين كلوا من القتال . ورفض الصلح الآخرون . وهرب كثير بأسرهم إلى أفريقية خشية الانتقام إذا ما كان الفشل .

وما زالت جنود الحكومة تطارد مولاى عبد الله حتى تمزق جنده ، وقتله أنصاره فى نهاية الأمر فداء سلامتهم ، وحملت جثته إلى غرناطة ، وعرضت على الناس بعد أن مثل بها

أما من بقى من المتنصرين فقد أجبروا على إخلاء دورهم ،وشردوا فى مقاطعات اشتورش وجليقية بالشمال ، وروقبوا مراقبة شديدة .

ودبر بعض المتنصرين ثورات فى بلنسية وغيرها ولكن الحكومة قبضت عليهم وأذاقتهم سوء العذاب ، وسالت دماؤهم أنهاراً وحرقت أجسامهم أكواما مكومة .

* * *

وخلف الملك فيليب الثاني ابنه فيليب الثالث . وكان ضعيف الرأى يخضع لرأى القساوسة ، وكان وزيره دوق دى ليرما من أشد الناس تعصباً للكثلكة ، ومن ألد أعداء المسلمين ومتنصريهم . فأشار على الملك الضعيف سنة ١٥٩٩ م (توافق سنة ١٠٠٧ — ١٠٠٨ هـ) بأنه يجب استرقاق شباب المتنصرين والكهول منهم وأن تصادر أموالهم ، لأنهم مسلمون. وأن ينفى شيوخهم إلى مراكش والجزائر ، وأن تأخذ أطفالهم ليربوا فى المعاهد الدينية باسبانيا . وقد أقر مجلس الدولة ذلك المشروع ، وأخذوا يدبرون فى الخفاء كل ما يلزم من جهد وقوى لحصر عدد المتنصرين فى كل أسبانيا .

وقدم المطران ربيرا مذكرة إلى الملك عام ١٦٠١ م (يوافق سنة ١٠٠٩ — ١٠١٠ هـ) يذكر فيها إخفاق كل محاولة مع المتنصرين ، وأن فى وجودهم الخطر كل الخطر على البلاد . وأن المبالغ الطائلة تصرف لمراقبتهم بدون فائدة . وقال : بأن الدين إنما هو دعامة الدولة الاسبانية . وعلى هذا فهو يقترح تأليف محكمة سرية من كبار الرهبان والقساوسة تحكم بردة المتنصرين وخيانتهم ، و بناء على ذلك تعلن وجوب نفيهم ومصادرة أموالهم .

إلا أن هذه المذكرة لم يعمل بها ، لأن مجلس الدولة رأى السير في تحقيق ما أر به سراً ، وأن لا تصطبغ إجراءاته في ذلك بصبغة دينية . فعهد ببحث المسألة إلى لجنة خاصة يرؤسها الدوق دي ليرما . فبعد بحث وجدال طويل بين أعضائها اتخذ المشروع لتنفيذه خطة نهائية . وذلك بامهال المتنصرين شهرا واحدا لبيع أملاكهم ومغادرة أسبانيا حيثما شاؤا . ولهم أن يجازوا إلى أفريقية وهم آمنون ، ولهم أن يذهبوا إلى بلاد مسيحية إذا شاءوا فيوصى بهم خيرا (؟ ! !)

وجعل عقاب من يتأخر عن الرحيل بعد انتهاء الشهر أن يجازى بالموت وأن تصادر أمواله . ولم تكن هناك معارضة ما على المشروع في ذاته

ولكن أسبانيا كانت في شغل شاغل لما كان بينها و بين انكلترا وفرنسا من خصام فتأجل تنفيذ المشروع زمنا .

وعاد مجلس الدولة في يناير سنة ١٦٠٩ (شهر رمضان سنة ١٠١٧ هـ) للمسألة من جديد . وكتب تقريرا يحبذ فيه نفى المتنصرين لأسباب دينية وسياسية أتى التقرير عليها .

منها : أن أسبانيا معرضة لخطر غزوها من مراكش ؛ وقد اقيمت الأدلة والبراهين على خيانة المتنصرين في هذا الصدد. ولهذا فهم أهل للموت الزؤام أو الاسترقاق ، ولكن أسبانيا رحيمة رقيقة لهم (؟!!) وتقنع بنفيهم من أرضها (الله أكبر !!)

وتقرر تنفيذ الخطة في خريف العام المذكور وأرسلت أوامر إلى حكام صقلية ونابولى وميلانو ليعدوا مايلزم من سفن النقل لأولئك المتنصرين وقد جمعت سفن كثيرة تعد بالعشرات في جزيرة ميورقة من أوائل الصيف . ولما كان الثاني والعشرون من شهر سبتمبر سنة ١٦٠٩ م . أو شهر جمادى الثانية

سنة ١٠١٨ هـ . أعلن قرار النفى الأخير ، فاضطرب المتنصرون وفزعوا

* * *

وقد جاء فى هذا القرار : أن المتنصرة هم أعداء الملة والدين والوطن ، وأن لهم اتصالا باعداء أسبانيا ، وأن لاسبيل إلى جعلهم يعتنقون الدين المسيحى (الكاثوليكى) ولهذا وجب طردهم إلى بلاد البربر بأفريقية ، وأنه يجب أن يغادر المتنصرون أسبانيا نساء ورجالا وأطفالا فى ظرف ثلاثة أيام من يوم نشر القرار فى المدن والقرى ، وأن يذهبوا إلى الثغور التى يعنها لهم المكلفون بترحيلهم من قبل الحكومة . وجزاء من يتخلف الموت .

وقد صرح لهم أن يأخذ كل منهم مايستطيع حمله من المتاع فوق ظهره فقط وأن يحمل كل مايستطيع من المؤونة . ولو أن الحكومة تكفلت بمدهم بالغذاء أثناء السفر . ويجب عليهم أن يلبثوا خلال الأيام الثلاثة فى أماكنهم رهن إشارة الموظفين المكلفين من الحكومة بامر ترحيلهم . وان يكون كل ماخلفوه من عقار أو منقول للسادة ؛ ومن أشعل النار فى عقار أو منقول فجزاؤه هو وجيرانه فى الحى جميعاً الاعدام

وفى الأمر : أن يختار السادة ستة أشخاص من كل مائة من جماعة المتنصرين ، شديدى التعليق بالمسيحية كثيرى الخبرة بأعمال الزراعة وفهم الفنون ، وأكبرهم سنا للانتفاع بهم فى تلك الأمور ، ومن كان دون الرابعة من سنه سمح له بالبقاء إذا رضى بذلك (عجبا ؟ !!) أو إذا رضى أباؤهم أو أولياؤهم بذلك . و إذا كانوا دون السادسة وكانوا من أبناء المسيحيين الذين لم يتنصروا فلهم أن يبقوا وأن تبقى معهم أمهم المتنصرة . و إذا كانت الأم نصرانية أصيلة والأب متنصرا ، فان الأب ينفى وتبقى الام مع أطفالها الذين كانوا دون السادسة

وكل متنصر أقام بين مسيحيين مدة عامين ولم يختلط بالمتنصرين وشهد له قسيس بانه على نصرانيته فله أن يبقى .

وكل من أخفى هاربا أو حمى متنصرا فجزاؤه الاشغال الشاقة مدة ست سنين

وقد أمر الجنود والمسيحيون الأصيلون بعدم التعرض للمتنصرين ، وان لا يهينوهم لا بالقول ولا بالفعل . وجزاء من يفعل ذلك شديد العقاب .

* * *

كان ذلك القرار مفاجأة شديدة الوقع على نفوس المتنصرين . وكانت الثورات السالفة قد أنهكت من قواهم ، وعلموا أن الحكومة قد اتخذت عدتها الكاملة لتنفيذ قرارها ، وأعدت مالها من بأس وقوة فى كافة الارجاء التى بقى بها متنصرون . ومع ذلك فقد حاول البعض أن يثوروا وأن يقاوموا وأن يدافعوا عن أنفسهم ما استطاعوا ، سيما فى بعض الجهات الجبلية ، الا أن مقاومتهم لم تجدهم شيئا ، وتغلبت الحكومة بقواتها وجبروتها عليهم بسرعة ، وأخمدت ثوراتهم الضعيفة الأثر

٤ – النفى من أسبانيا وتشتيت البقايا

وبدىء بتنفيذ الأوامر فى أعمال الأراجون و بلنسية لأن القرار قد نشر فيهما أولا .

ففى أوائل شهر أكتوبر عام ١٦٠٩ م (فى شهر رجب سنة ١٠١٨ ﻫ) نفى نيف وثمانية وعشرون ألفا من المتنصرين من ثغر دانية وثغور أخرى . وقد ذهبت بهم السفن إلى وهران ونزلوا فى جوار وحماية سلطان تلمسان . ونفى من ثغر بلنسية مايقرب من خمسة عشر الفا ، ونفى البعض من القنت، والموسيقى تعزف ألحانها والأغانى تنشد .

ويقدر البعض عدد المنفيين الى أواخر سنة ١٦٠٩ م (سنة ١٠١٨ ﻫ) بما يقرب من المائة وخمسين الف نفس ، وقد كان بين المتنصرين ألوف من ذوى الثروة ، أمكنهم أن يسافروا على نفقتهم الخاصة

ورحل ما يقرب من الخمسة والعشرين الف نفس كانوا بالاراجون الى نبرة « نافارا » ورحل من قشتالة نحوا من سبعة عشر الفا قصدوا فرنسا ، فأذن لهم ملكها هنرى الرابع بذلك على شرط أن يحافظوا على المذهب الكاثوليكى . وأن يسكنوا ماوراء الجارون .

أما فى الجنوب الشرقى من اسبانيا وفى الأندلس فقد أعلن المتنصرون هناك بقرار النفى بغرناطة فى الثاني عشر من شهر يناير عام ١٦١٠ م (يوافق ١٧ شوال سنة ١٠١٨ ﻫ) والقرار يشابه ما أشرنا إليه ، الا أنه سمح للمتنصرين بالرحيل فى خلال شهر ، واذن لهم أن يبيعوا المنقول مما يملكون ، وان يقبضوا أثمانه ، وطبعا يسهل فهم ما لهذا القول من قيمة وما تباع به الأشياء من أثمان هى نهاية ما يمكن أن يحصل عليه مضطر للبيع العاجل من رخص الأثمان

ونص قرار غرناطة على أن الملك قد صادر عقار المتنصرين وأخذه لنفسه

ويقدر البعض عدد المنفيين من اقليم غرناطة بما يقرب من مائة الف نفس

وأخذ القرار يعلن فى بقية الجهات التى كان يسكنها المتنصرون فى كل جهات أسبانيا.

ولا تسل عن القسوة والوحشية والشدة فى معاملة أولئك البائسين

وظلت سفن النقل تروح وتجىء لنفيهم شهورا عدة ، وهى مشحونة بهم وتلقى بهم فى مختلف ثغور أفريقية بكيفية تفتت الاكباد أسى وحسرة ، وتذيب النفوس ألما ولوعة

٥ – عدد من نفى

والخلاف كبير فى تقدير المؤرخين لعدد من نفى من أسبانيا بعد ذلك القرار فليورنتى يقدرهم بالف الف نسمة ؛ و يقدرهم غيره بستمائة الف ، وثالث بتسعمائة الف. و يقدرهم فون بور خشتال النمساوى بعشرة آلاف وثلاثمائة الف وتقدر احصائيـة تقريبية لسكان أسبانيا فى تلك العصور بثمانية آلاف الف نسمة. و إذا ماصدقنا مايقوله نافاريتى من كبار مؤرخى أسبانيا بان عدد من نفى من أسبانيا أثناء تلك العصور هو الفان من الالوف اليهود وثلاثة آلاف الف من المسلمين أو من متنصريهم عدا من استرق منهم أو قضى نحبه تعذيبا وحرقا وعددهم كبير جدا يصعب تقديره ، ولـكن العدد لا يقل بأى حال من الاحوال عن مائتى الف إلى ثلاثمائه الف

فاذا راجعنا كل تلك الاعداد الضخمة لتقريب الحقيقة إلى الاذهان بقدر مانستطيع أمكننا أن نعرف مبالغ خسارة أسبانيا وغيرها لفقدها تلك الآلاف المؤلفة التى كانت الزهرة اليانعة فى البلاد . فلما قطعت تلك الزهرة وذهبت بها ريح العسف والبغى استولت الوحشـة على بلاد تمكنت منها طغمة خاسرة تعمل باسم الدين وتتوارى خلفه وتأتى بمأساة هى (أشد ما سجلت صحف الانسانية فظاعة وقسوة و بربرية) على حـد قول الـكردينال ريشليو. والتى لم ترض رجل الدين كليورنتى وكان من أحبار الـكنيسة ومن أعرف الناس بخبايا ديوان التفتيش وبأعماله، تلك الاعمال التى لا يغمض العين عن اتيانها من به ذرة من العقل والشعور أو كان على شىء ولو قليل من المعرفة بالدين دين عيسى ابن مريم الذى جاء يبشر بالسلام .

٦ — ما بعد النفى

سنة ١٦١٠ م سنة ١٠١٨ — ١٠١٩ ﻫ ؟ !

ولم تكف محاكم التفتيش عن إتيان مخازيها ، بل حفظت السجلات ، وسجل التاريخ عدة حوادث ومحاكمات على أفراد وجماعات اتهموا بالارتداد عن الكثلكة بعد نفى تلك الجموع الفقيرة سنة ١٦١٠ (سنة ١٠١٨ ﻫ)

فقد قبض فى بلنسية على فرنشيسكو دى لوكى المتنصر سنة ١٦٢٥ م (سنة ١٠٣٤ ـ ١٠٣٥ ﻫ) وكان قد فر من أسبانيا وانضم إلى قرصان الجزائر الذين كانوا يغيرون على شواطىء أوروبا . ويقال : بأن هذا الرجل قد أدى فريضة الحج ووصف رحلته فى كتاب ألفه ، وقد حكمت عليه محكمة التفتيش بالجلد والسجن ماعاش .

وبعد عشرين سنة قبض على جماعة من متنصرة العبيد ، لانهم حاولوا الفرار إلى الجزائر وقضت عليهم محكمة التفتيش ببلنسية ـ أن يذوقوا صنوف عذابها .

وصدرت أحكام بقرطبة على مسلمة استرقت واجبرت على التنصر لمحاولتها الفرار الى الجزائر واتهامها بالارتداد عن المسيحية

وصدرت أحكام ببرشلونة كذلك . وفى مجريط سنة ١٦٨٠ م (سنة ١٠٩٠ ١٠٩١ ﻫ) قدم للمحكمة مسلم من قادس كان اسمه بإسم مسيحى وأصبح يدعى لازارو فرنندو . وقد انضم الى فرضة الجزائر . ولم ينكر الرجل اسلامه بل أصر عليه ، فأعدم حرقا هو وجماعة أخرى اتهموا بتهم عديدة .

ولم يغفل الديوان المقدس ولم يتوان لحظة عن أداء المهمة البربرية التى تطوع أفراده بالقيام بها .فقد صدرت أحكام من محاكمه ببلاد الوليد وطليطلة ومجريط

وفى قرطاجنة حيث ضبطت جماعة من المتنصرة يصلون سرا بمسجد هنـاك سنة ١٧٧٩ م سنة ١١٧٣ هـ ، ولا تسل عما لاقوه من جزاء وعقاب وحرق .

على أن الديوان كان نشيطاً مجدا فى اضطهاد غير اليهود وغير المسلمين ، وفى محاكمه المسيحيين أنفسهم لاتهامهم بأنهم حادوا عن الكثلكة ، مع أن رجال الديوان كانوا يرمون الى أشياء أخرى دنيوية محضة لادخل للدين فيها ، والى مآرب سافلة فى أغلب الأوقات . وقد حاول البابا پول الرابع الرئيس الأعلى وصاحب الكلمة العليا التى لاترد فى شؤون الديوان المقدس وفى محاكم التفتيش أن يستعمل الديوان لتجريد شارل الخامس وابنه من الملك .

وممن اضطهدهم الديوان ورجاله مطران طليطلة بارتلمى كارنزا سنة١٥٥٧ م (سنة٩٦٤هـ) فقد دبرت ضده المكائد ونصبت له الأفخاخ لما كان يضمر له بعض كبار الأحبار من البغض والحسد . وقد اعتقل فى بلد الوليد بمنزل خاص بعد قبض عليه فى الثانى والعشرين من شهر أغسطس سنة١٥٥٩ م (يوافق يوم ٢٤ ذى القعدة سنة ٩٦٦ هـ) لاتهامه بالكفر . وقد لبث فى اعتقاله إلى الخامس من شهر ديسمبر سنة ١٥٦٦ م (يوافق يوم ٢٢ جمادى الأولى سنة٩٧٤ هـ) وحمل إلى روما وهو ضعيف لقًى ليحاكم هناك . وقد أصدر البابا أمره إلى المطران المعذب أن يتوب عن كل آرائه فى الكفر والالحاد . وأن لا يرى آراء تشابه أراء مارتن لوثر . وقضى عليه بالاعتقال خمسة أعوام فى دير عينه له يقوم فيها بصلاة عينها . وقد قضى المطران الهرم نحبه فى سجنه فى الثانى من شهر مايو سنة ١٥٧٦ م (يوافق ٣ صفر سنة ٩٨٤ هـ) . بعد أن قاسى ما قاسى من ألوان العذاب .

وقد حكم على دون ردريجو دى بومون من أمراء نبره (نافارو) من عظماء أسبانيا سنة ١٥٤٢ لعطفه على المتنصرين . وكذلك حوكم أمير البحر

لمملكة أراجون سانكودى كردوفا متهما بالكفر والزندقة . وقد اعتقل وتوفى بأحد الأديرة وهو شيخ هرم .

وكم حوكم غيره وقضى عليهم وكم وكم ؟ . .

واستمر الديوان فى جبروته وطغيانه وفسقه وفجوره حتى احتل الفرنسيون اسبانيا وصدر أمر نابليون (سنة ١٨٠٨ م سنة ١٢٢٣ هـ) بالغائه . ولكنه عاد للحياة فى عهد فردنياند السابع ملك أسبانيا الذى أحياه سنة ١٨١٤م (سنة ١٢٣٠هـ) وظل فى مظالمه حتى سنة ١٨٣٤ م (سنة ١٢٥١ هـ) لما وافق مجلس النواب الاسبانى على إلغائه نهائيا فى اسبانيا كلها . ولكن بعد أن أتى ما أتى كما تراه فى مكانه من هذا الكتاب ، وهو شىء قليل مما كان يحدث .

ولقد كان الرئيس تركويمارا يفخر بأنه قضى بأحكامه الجائرة وتفننه فى صنوف التعذيب على نيف ومائة ألف نفس أثناء سبعة عشر عاماً التى كان فيها رئيسا لذلك الديوان الدموى .

وحكم الرئيس ديزا فى سبعة أعوام على ما يقرب من خمس وثلاثين الف نفس أما كمنيس فانه اشتد على المسلمين والمتنصرين اذ قضى قضاؤه على إهلاك نيف وخمسين ألف نفس أثناء اثنتى عشرة سنة .

ويقدر ليورنتى وهو خبير باعمال الديوان ومحاكمة عدد الضحايا من أول عهد الديوان حتى أوائل القرن التاسع عشر بما يأتى :

٣١ر٩١٢ شخصا أحرقوا فعلا

١٧ر٦٥٩ أحرقت رموزهم أو تماثيلهم

٢٧١ر٤٥٠ وقعت عليهم عقوبات متنوعة ولكنها شديدة

٣٤١ر٠٢١ مجموع الضحايا

وسواء كان هذا العدد صحيحا أو كان مبالغاً فيه على رأى البعض أو أقل من الحقيقة بكثير على رأى آخرين ، فمما لا شك فيه أن أمثال تلك الفظائع التى كان يأتيها الديوان المقدس ، وتلك الاحكام القاسية الجائرة التى كانت تقضى بها محاكم التفتيش وتنفذها هى فظائع ليس لها مثيل فى تاريخ كبار المجرمين وطغمة الاشقياء الفاسدين.

ولا يفوتنا أن نذكر فى ختام كلامنا هذا ان المصائب التى حاقت بالمسلمين فى تلك البلاد انما كانت جزاء تفرقهم وانقسامهم شيعا وطوائف . ففشلوا وذهب ريحهم وحاق بهم ذلك العذاب الاليم .

كيف بدأ ديوان التفتيش

١ — سجون التفتيش فى فرنسا

اجتمع رجال الكنيسة الكاثوليكية فى مدينة طلوشة (تولوز) سنة ١٣٢٩م (٧٢٩ هـ) لأول مرة أيام البابا جريجوريوس التاسع اجتماعاً تمهيدياً لتقرير إنشاء محكمة يقدم إليها كل من اتهم فى دينه الكاثوليكى ، وكل من كان على دين أو معتقد غير ما يعتقد جماعة الكاثوليك ، أمثال اليهود والبروتستانت ، وجماعة المفكرين والأحرار والمسلمين الذين كانوا بأوروبا أيامئذ ، أيام كانوا بأسبانيا والبرتقال ، وكل من يتهم بالالحاد والزندقة فى مسيحيته الكاثوليكية .

ولكن البابا المذكور لم يقرر إنشاء الديوان بطريقة رسمية والعمل بما رآه المجتمعون إلا فى سنة ١٣٣٣ م (٧٣٣—٧٣٤ هـ)— فصدرت الأوامر إلى كل الكنائس الكاثوليكية بتعيين كاهن خاص بالبحث عمن أشرنا إليهم آنفا وتقديمهم لمحكمة باباوية خاصة . وخول لكاهن التفتيش الخاص أن يستعين بمن يراه لازما لمعونته من الجواسيس ، وكان يطلق على تلك المحكمة الخاصة الباباوية « الديوان المقدس » أو « التفتيش المقدس » . ولم يكن يعرف أولئك الجواسيس ، بل أخفيت أسماؤهم عن الناس ووعدوا بغفران خطاياهم ، وأحل لهم ارتكاب الجرائم مهما يكن نوعها ومهما تعقب من عظائم الأمور . فكان المتهم الذى يحضر أمام المحكمة يسأل ويقرر بما يعتقده صراحة عن الكنيسة وعن

الدين المسيحى ، فاذا أبى الاذعان دفع به الى معذبين يسومونه العذاب الأليم .

وظل ديوان التفتيش يعمل بفرنسا ، تارة جهرا وتارة فى طى الخفاء ، تبعا لآراء الملوك الذين عضدوه ، حتى كانت الثورة الفرنسية فتقرر إلغاؤه ، وانتقم الشعب من رجاله وهرب بعضهم إلى أسبانيا والبرتقال لينضموا إلى رصفائهم هناك

ومع أن ذلك الديوان وتلك المحاكم كانت معروفة فى فرنسا و إيطاليا وفى بلاد أخرى من أوروبا ، إلا أنها لم تعمل بها مثل ما عملت بأسبانيا والبرتقال ، ولم تمارس من الفظائع والأعمال البربرية الوحشية مثل مامارست بجزيرة إيبريا ؛ حتى قدر بعضهم عدد ضحايا التفتيش بما لا يقل عن تسعة آلاف ألف من الناس أثناء المدة المحصورة بين سنة ١٣٣٣ وسنة ١٨٣٥ م ، حيث ألغى من أسبانيا بعد أن لطخ كل أرجائها بالدم المسفوك فى سبيل نصرة الكثلكة والقضاء على مخالفيها .

٢ ــ سجون التفيش فى أسبانيا

يذكر بعض عارفى أسبانيا ، أنه يوجد إلى يومنا هذا فى عدة مدن بأسبانيا أبنية قديمة غريبة فى هندستها وشكلها ، تباين ما حولها كل المباينة ، كأنها مجموعة من قصور وأديرة وسجون معاً ؛ فجدرانها ضخمة ونوافذها قد اعترضها حديد ضخم غليظ قد تصدأ .

و إذا ولجت إحدى هذه الأبنية من الخلف رأيتها مؤلفة من عدة غرف صغيرة يوصل إليها بممر ضيق . ويصل النور إليها من (منور) صغير فى سقف كل غرفة ، وقد أحكم سد المنور بثلاثة أدوار من غليظ الحديد عليها .

ويرى الزائر فى أرض الممر فتحات صغيرة كل فتحة تبعد عن الأخرى نحو متر ونصف متر ، وقد أحكم سدها بالحديد الغليظ . وقد خصصت هذه

الفتحات للمسجونين فى الغرف السفلى تحت الممر ، أى الغرف التى بالدور الأسفل ، ومن تحته طبقات أخرى عديدة تحت الأرض ، وهى سجون سرية لا يهتدى إليها إلا رجال المحكمة والسجانون فحسب .

ومهما يكن النهار رائعاً والشمس طالعة مشرقة ، فان الزائر لا يبصر شيئا فى تلك الممرات والغرف لشدةظلمة المكان ؛ بل يجب أن يصطحب نوراً يضىء له الطريق . أما الغرف فكانت تطلى بالشحم ، ويظهر أن ذلك كان لمنع السجين من تسلق الجدران والهرب ، أو عمل أى أثر فى الحائط للنجاة . ثم يرى بعض آلات التعذيب فى كل مكان ، مثل أسواط بها قطع من الحديد الشائك ، لجلد المسجونين وإهراء لحومهم من عظامهم ذى كلاليب لانتزاع اللحم من العظم ، وقدور من الحديد لعلها كانت لصهر الرصاص فيها وصبه على المعذبين أو لغلى الماء أوالزيت لمثل ذلك الغرض ، ويوجد إلى جانب ذلك مستودع للفحم لايزال كثير منه إلى الآن بقربها .

ومع أن السجون تلك كانت رطبة ، فقد كان الماء يصب فيها على الدوام لكى لا تتشرب الأرض الدماء السائلة من أبدان المعذبين وتبقى مشبعة بها .

ذلك مثال من أبنية التعذيب التى كانت تدعى بدور (الديوان المقدس) يتولى الرعب والخوف كل من يمر أمامها لمجرد تصوره أنه سيدخلها يوما ما ، فكان يتلفت يميناً وشمالا وإلى خلف ، وهو لا يصدق أنه سيجوزها ويتخلص من منظرها المخيف المرعب .

٣ سجون التفتيش فى البرتقال

كانت محكمة ديوان التفتيش العامة بالبرتقال ، بمدينة لاشبونة ، فى مكان الملعب الوطنى اليوم ، وقد شغلت أبنيتها كل الحى ، حتى إن أبوابها الخلفية كانت تصل إلى الطريق المؤدى لدير القديس أنطونيو .

وقد بنيت هذه الدار بطريقة تؤدى الغرض من إنشائها . فكانت ذات غرف عديدة وممرات مظلمة تحت الأرض ، وفى وسطها أربع قاعات كبيرة فسيحة ، كل منها أربعون مترا مربعا ، ويحيط بكل قاعة ثلاثة أروقة ، مؤلفة من ثلاثة أدوار ، وفى جدران تلك الأروقة أبواب صغيرة ، الواحد جوار الآخر كانت أبوابا للسجون المعدة للمتهمين والمعذبين .

وفى الممر الأسفل الذى يحيط بكل قاعة ، سجون صغيرة وضيقة ، حالكة ومظلمة جدا ، أعدت لمن كانوا أشد كفرا وضلالا من غيرهم .

وكانت الأروقة الثلاثة وما بها من سجون تحيط بكل قاعة من قاعات العذاب ، عبارة عن ثلاث درجات للتعذيب ، تبعا لذنب المتهم فى نظر رجال الديوان وتقديرهم ، وما يحكم به عليه من أنواع العقاب .

فمن كانت ذنوبهم خفيفة سجنوا بالسجون العليا ، وهؤلاء يصلهم فيها قليل من النور ، وكان جلهم ممن قبض عليهم للبحث عن شئونهم والتثبت من أمورهم لأن الديوان ما كان ليثق كثيراً بأى تهمة تصله مالم تكن عن طريق أفراده وعيونه الذين عينهم ، أما من وشى بهم غير الجواسيس فكانوا يزجون فى تلك السجون العليا . وكان الديوان يسعى للقبض على أعدائه الذين يرغب فى التخلص منهم دفعة واحدة ليقتلهم . وأمثال أولئك المسجونين سجناً احتياطيا كانوا قلائل نادرين جداً . وقل من قبضت عليه محكمة ديوان التفتيش وأدخلته سجونها وخرج حياً منها ؛ لأن أولئك المفتشين كانوا يقضون على كل مخالف

لدينهم وكنيستهم بالموت ، أما من كان معهم فله أن يفعل ما يشاء دون أى مسئولية ولا عقاب عليه .

وخصصت الطبقة الوسطى من تلك السجون للنساء اللواتي كان رجال ديوان التفتيش يترددون عليهن من حين لآخر . وكثيراً ما كان يتم ذلك للعبث بعفافهن فى تلك الدار الموحشة .

وكان لأبواب تلك السجون الفردية عوارض غليظة من الحديد ، يظل بها السجين بعيدا عن الباب بطريقة أعدت لذلك ، لئلا يحاول الكسر أو الفض . ومع فرض كل المستحيلات ، وتمكن سجين من أن يفتح الباب ، فانه يرى أمامه سوراً عاليا طوله خمسة وعشرون متراً ، يفصله عن السجن خندق عميق عرضه يتراوح بين الأربعة أمتار والخمسة ، يطوف به الحراس ليل نهار .

ولا يرى السجين شيئاً ما مما فى الخارج ولا يدرى ما به ، وتدخل إليه أشعة من نور ضئيل وقليل من الهواء – لئلا يختنق – من فتحة صغيرة فى أعلى الباب . وكل غرفة لا تزيد على مترين طولا ومثلها عرضاً ، ولا يمكن أن يتصور الانسان ما بها من ظلام خصوصاً سجون الطابق الأسفل ، ولا سيما إذا لاحظت أن الممرات التى يستمد منها السجين النور مظلمة ظلاماً يحتاج السائر فيها إلى مصباح إذا كانت الشمس فى رابعة النهار .

وكان ذكر تلك السجون يلقى الرعب فى قلوب أشجع الشجعان .

وقد كان يرى المتأمل إلى جانب تلك السجون والمطابق المتصلة بقاعات ديوان التفتيش الغرف الفسيحة والابهاء الفخمة توفر فيها كل ألوان الرفاهية والنعيم المقيم ، فيها أفخر الرياش يتقلب عليها رجال المحكمة المقدسة فى الدمقس والحرير ، وبها المقاعد الوثيرة المريحة ، يأكلون ما لذ وطاب ويحتسون معتق الخمور ولذيذ الأنبذة ، يسكرون ويطربون على أنغام ما يصدر من فرائسهم فى هذا الديوان المقدس من أنين وعذاب أليم .

٤ - السجين فى مطبقه

لم يكن عند السجين سوى قطعة من الخشب طولها متران وعرضها متر ونصف المتر تكون سريره على الأرض ، ويعطى له غطاءان من الخيش يفترش واحداً ويغطيه الآخر ، وتعطى له قرميدة أو قطعة من البلاط تكون وسادة له ويترك له إناءان ، يحوى أحدهما ماء للشرب ويحفظ بالثانى بوله وبرازه ، ويترك له إناء آخر للزيت يضع منه فى المصباح الذى يلزم باضاءته ليل نهار . وكان ذلك الأثاث لمن كانوا فى الحبس الاحتياطى وكان ذنبهم صغيراً ، أما من عداهم فلا .

وسبب إلزامه باضاءة المصباح ليل نهار ، لكيلا يميز الليل من النهار . وكان يستعاض فى سجون أسبانيا عن المصابيح الزيتية بشموع ، ليذكر السجين بأنه أصبح فى عداد الأموات الذين توقد لهم فى غرفهم الشموع ، لشدة النكاية بهم وهم أحياء ، ولازدياد الرهبة فى قلوبهم فيلتزم الهدوء والسكون . ولم يكن يسمح للسجين برفع صوته حتى لو كان يصلى ، بل يجب أن يلتزم الصمت التام ؛ والويل كل الويل لمن خالف ذلك أقل مخالفة

وكان يفرض على كل سجين منهم قرش واحد فى اليوم ، فاذا ما انتهى الشهر طاف السجان بالسجناء يجمع منهم تلك القروش ، ويسأل كل واحد منهم ماذا يرغب أن يفعل بها فى شهره القادم ، وماذا يريد من مأكل مثلا ؟ وإليك إجابته على قبيل المثال :

(١) تسعة قروش ليقدم له كل يوم صحن مرق لحم ساخن . (٢) ثمانية قروش ثمن خبز . (٣) أربعة قروش ثمن جبن . (٤) قرشان ثمن فاكهة . (٥) أربعة قروش ثمن نبيذ .

والباقى وقدره ثلاثة قروش لغسل ثيابه ، وكان يصحب السجان كاتب يدون مطالب السجناء كل على حدة ، فيقدم للسجين كل ما أملاه على الكاتب

وما أبداه من رغبات مع تقديمها تماماً فى مواعيد مضبوطة .

أما إذا جاء أمر من الديوان بالغاء شىء منها أو بالغائها كلهـا ، فلا يعطى شىء ما ، و إذا ما قرر المجلس شيئاً للسجين من الأطعمة فيجب على الكاتب والسجان أن ينفذا ذلك بكل دقة ، و إلا نالهما من العقـاب الصـارم ما يجعلهما عبرة لغيرهما ، لأنهما لم ينفـذ أوامر المحكمة المقدسة ، وكان رجالها يعدون أنفسهم نواب الله فى أرضه .

أما من كان يستزيد فى المقرر من طعـام وخمر ، وكان جلهم من الغرباء ، فـكان يجب عليهم أن يتقدموا لرجال الديوان و يشافوههم بطلباتهم وحاجاتهم فيستمع لهم رجال الديوان و ينصتون وتجاب الطلبات غالباً مالم يكن منها مايضر بالصحة ، و كانوا يقصدون بذلك أن يطيلوا آجالهم لتنفذ فيهم مشيئة المحـكمة المقدسة ، ولا يدعونهم يموتون من مرض تسبب عن طعام أو شراب .

وكان محظوراً على السجين أن يكلم أحدا أو أن يرفع صوته سواء كان من الآلام أو للصلاة أو لاستغفار الله أو للترتيل أو للغناء أو لأى سـبب آخر ، فـكأنما قد انقطعت صلته بالعالم بأسره انقطاعا تاماً ، ومن خالف تلك الأوامر عرض نفسه للعذاب وللقصاص الأليم .

وكان حراس السجون ورجال النظام فى تلك السجون المظلمة ينقلون لرجال الديوان المقدس كل ما يحدث فلا تخفى عليهم خافية .

وكانت الممرات التى بهـا أبواب السجـون ملأى بالسجانين يستمعون لمعاشر البائسين فى المطابق و يأمرونهم ألا يرتـكبوا مايحرمه رجال التفتيش عليهم مرة ، فاذا عاد أحدهم وارتـكب مخالفة (على حد تعبـيرهم) صدر الأمر بارسال السجين إلى حضرة رجال المحكمة ، و يخرج المسـكين أمام بقية المسجونين ، فاذا مثل أمام المحكمة أصدرت حكمها بسرعة بتأديبه وتعذيبه ، فيرسل إلى قاعة

التعذيب ، فيصيح من شدة الآلام التي يقاسيها حينئذ و يصرخ فاذا ما سمعه رفقاؤه في السجن ملئوا رعباً واشتد بهم الحزن والغم .

وكان محظورا على السجين الاتيان بحركة أو الكلام وهو في سجنه منعاً باتا ، حتى إن أحد المسجونين أصيب بالسل بعد أن قضى زمناً طويلا في عذابه وسجنه الرطب الموحش المظلم ، فأخذ يسعل رغم أنفه ، فأنذروه بألا يعود إلى السعال بعد ، فأجاب وهو خاشع ذليل أن هذا رغم إرادته ، وأنه لا يمكنه الانقطاع عن السعال . واشتد عليه المرض فأكثر من السعال ، فاقتيد إلى المحاكمة فقضت فيه بحكمها العسوف ، وكان يقضى بضربه بالعصى فضرب ، حتى سقط بين أيدى معذبيه القساة واستراح من تعاسته وحياة السجون والعذاب . والذى روى هذا شاهد عيان اتهم بأنه من أحرار البنائين (الماسون) ، وسجن عام ١٧٤٣ م (سنة ١١٥٦ هـ) .

٥ ديوان التفتيش في بلاد البرتقال

بدأت محاكم التفتيش تباشر فظائعها ببلاد البرتقال حوالى سنة ١٥٤٧ م (سنة ٩٥٤ هـ) أيام الملك جوان الثالث ، أعنى عندما ابتدأت الأسرة المالكة هناك فى الانحطاط ، على أنا نرجو ألا يفهم من هذا أنه لم يكن هناك اضطهادات دينية عديدة وقعت على الناس فى بلاد البرتقال و بلاد أسبانيا قبل ذلك التاريخ ، فكل من درس تاريخ تلك العصور المظلمة يعلم شدة غلو الملك فرديناند فى تعصبه للمذهب الكاثوليكى والذى كان يقول كلمته الشهيرة وهى :

« يجب أن تكون أسبانيا إما كاثوليكية أو اسلامية »

و يعنى بذلك أنه يجب أن تدين البلاد بدين واحد وهو الكاثوليكى طبعاً ، ويجب ألا تدين بدين آخر .

أما فى بلاد البرتقال فقد أدخل الملك جوان الثالث ذلك الديوان الخاص المعروف بقسوته وعتوه فى محاربة من خالفه ، ونعنى بذلك الديوان ديوان التفتيش أو محكمة التفتيش .

وكان ذلك الملك يأتى إلى ساحة المدينة التى كان يحرق بها من حكمت عليهم محاكم التفتيش بالحرق والعذاب ، وكان الملك يصحب الملكة والوزراء ورجال الدولة وكبار رجال الدين ، فيتبوءون مجالسهم فى مكان مرتفع مزين أحسن زينة ليمتعوا النفس بمناظر التعذيب وحرق اخوانهم فى البشرية وهم أحياء . و يعيدون تمثيل رواية أصحاب الأخدود الذين قال الله فيهم (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . اذهم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود)

٦ — وصف حفلة حريق

و إليك وصف حفلة من تلك الحفلات الوحشية : كان يتقدم الموكب كاهن يرتدى حلة بيضاء و يحمل صليباً أسود فى يده ، يترنم بترانيم الموت . و يمر أولا أمام عرش الملك و يعود فيقف فى الساحة . ثم يأتي فريق آخر من الكهنة بثياب بيضاء وصلبان سوداء . وكانت ـ رمز ديوان التفتيش ـ و يترنم الكهنة ويمرون أمام العرش ثم يقفون ثم يمر فريق من الشعب وهم يرتدون ملابس بيضاء بصلبان سوداء أيضاً ، فيفعلون كما فعل من سبقهم . ثم يمر المحكوم عليهم بالحرق وقد غطتهم القاذورات والطين والاوحال التى قذفها عليهم متعصبة الشعب ظانين أنهم يمجدون الله والدين بقذفهم أولئك المغذبين

وكان يحيط بهؤلاء السجانون وجنود الديوان والرجال المنوط بهم إجراء التعذيب . فاذا ما وصل السجناء إلى الساحة أصعدوا إلى أكوام من الحطب عالية ، وفى وسط كل كوم صليب مثبت لكى يموت المعذبون وهم ينظرون إلى تلكم الصلبان . ثم يرتقى رئيس المحكمة لذلك الديوان مرتفعاً عالياً أقيم فى وسط الميدان وكان يدعى (ساحة ريبرا) . و يأخذ فى تلاوة صورة الحكم على معاشر الزنادقة الكفار ! ! بصوت جهورى وهو يقول : « إن هؤلاء الكفرة قد استحقوا الحرق رجالا ونساء ، لأنهم يهود ، أو من المسلمين ، أو من غير أتباع المذهب الكاثوليكى ، وأنهم قد استخفوا بالأحكام المقدسة . وانهم قد اتخذوا الشيطان عدو البشر ولياً وحقروا الكنيسة وهم لا يأتون ثمراً . لذا وجب قطعهم وحرقهم بالنار عملا بقول السيد المسيح له المجد : « من ليس معنا فهو

علينا ، وان كل شجرة لا تثمر وجب قطعها والقاؤها فى النار . إن الذنب ذنبهم ودماؤهم على رءوسهم » .

و بعد أن ينتهى من تلاوة ذلك الحكم يصرخ أحد الكهنة باللاتينية وهو يقول

المجد لسيدتنا والدة الآله ومبارك كل مؤمن وطائع .

وعندها يمد الناس أيديهم لأخذ البركة .

ثم يتقدم هذا الكاهن لآخر مرة من المجرمين و بيده صليب سن العاج . و يعرض عليهم التو بة وتقبيل الصليب ، فمن أبى لعن لعنة أبدية . و إذا ما ساوره الخوف وقبل الصليب ووعدهم بأن يبوح إليهم بأسماء غيره ممن يبحث عنهم الديوان ، وأن يصرح بما يفكرهو به و يعلن لهم تو بته واستغفاره ، فعندئذ يعاد إلى السجن مرة أخرى ليتثبتوا من تو بته . و يقال: انه ندر من خضع من أولئك المساقين للموت . وعندما يصدر الأمر إلى جلاديهم باضرام النار ، فيعلو صراخهم وعو يلهم وتتصاعد روائح شى أجسادهم فى الجو ، وكثيراً ما كانت جسومهم تظهر وهى تحترق سوداء . وتظل النيران مشتعلة ثلاث ساعات بلا انقطاع والشعب يرقص حولها والكهنة يسبحون ، حتى تستحيل بقايا الحطب والجثث رماداً فينصرف الملك وحاشيته تشيعهم دعوات الشعب و بركات القساوسة

وكانت جواسيس التفتيش تنتشر فى كل مكان وفى كل بيئة وعددهم ألوف مؤلفة ، وكان منهم كهنة وأطباء ومعلمون وكلهم جاد فى البحث عن أعداء الكنيسة الكاثوليكية وأعداء رجالها . فاذا ماوقع مسكين فى قبضتهم زج فى أعمق السجون و يترك فيه ، ور بما تنوسى أمره ، فيلبث فيه إلى أن يشاء الله والو يل لمن يسأل عنه وهو لا يعلم لماذا سجن إلا اذا وقف أمام محاكم التفتيش و بدىء فى تقر يره وسؤاله .

وكان رجال الكنيسة ينظرون الى الاعتراف نظرة ذات مغزى وغرض بعيد . لانهم كانوا بواسطته يقبضون على أعدائهم ومناوئيهم ، وقد أمكنهم أن يجعلوا من الابن جاسوساً على أبيه فى حركاته وسكناته والاب على ابنه والزوج على بعلها ، فمن عرف شيئا ولم يبلغ عنه عد شريكا فى الزندقة والمروق عن الكثلكة واستحق صارم العقاب تبعاً لاحدى مواد قانون الديوان المقدس .وكان الصمت فى عرفهم يعدل العمل ضد الديوان جرماً ، وبذلك أوجدوا فى كل دار وبين كل أسرة جواسيس لهم ينقلون اليهم أسرار المنازل والبيوت وما يدور بين أفراد الاسرة من أحاديث وأسرار تلك الأسرة .

وقد ذكر أن أحد النبلاء أولم لبعض أصدقائه الاخصاء مأدبة ، وكان يعد كل واحد منهم الآخر عدل نفسه وفيا مخلصاً ، ولما أديرت بينهم بنت الحان وغابوا عن وعيهم من شدة السكر والعربدة ولم يع كل مايقول ،عندئذ تفوه أحدهم بعبارات كانت تعتبر جريمة عند رجال الديوان ، فلما كان اليوم الثانى تغيب ذلك المسكين عن أنظار عارفيه وأصحابه الذين علموا بعدئذ أنه أخذ إلى سجن التفتيش وكان بعض المدعوين قد نقل ماقاله إلى رجاله

وحدث أن امرأة نامت وطفلها فى سرير وإلى جوارهما كان ينام الزوج ، فتلفظ هذا المسكين بألفاظ مبهمة وهو غارق فى نومه فما كان من زوجه إلا أن أسرعت لأحد قساوسة التفتيش فى الكنيسة المجاورة لهم ، وكانت الكنائس لاتغلق أبوابها ليل نهار وتلبث مضاءة ، وأخبرت البلهاء ذلك الكاهن بما حدث وأن زوجها يتكلم وهو نائم بكلام مبهم لايفهم ، و بعد أن فرغت من اعترافاتها أخذت تصلى بالكنيسة برهة ورجعت إلى دارها ولم تر زوجها المسكين فى سريره وإذا به قد حمل الى سجون التفتيش لمحاكمته وتبيان مايقول وما كان يحدث به نفسه وهو فى سريره

ومن قبض عليه وكان ذنبه صغيراً لاطفه رجال التفتيش وحولوه الى جاسوس لهم ينقل اليهم أخبار الغير ، ومن عرفوا أنه من هذا القبيل أطلقوا سراحه فى الحال خشية أن يوضع فى المطبق فيختل عقله من هول مايرى

ويقال: ان كثيرين مما نزلوا فى ضيافة تلك السجون المظلمة كانوا يفقدون عقولهم فيها ويقضون نحبهم داخل تلك المطابق لما يشاهدونه من آلات التعذيب ومن مناظر تدخل الرعب فى النفوس. وإذا سيق المذنب للمحاكمة جاءه نفر قد ارتدوا أردية سوداء وتقنعوا بقناع أسود تظهر خلفه عيونهم وكأنما أحاط بالمتهم الشياطين ، وإذا ماوقف أمام رجال المحكمة بدىء فى استجوابه فيسألونه أسئلة وهم يلزمون السكون ويتأملون أوراق الاتهام طويلا ويضعون أمامهم على المائدة صليباً من العاج ، يأمرون المتهم أن يديم فيه النظر أثناء محاكمته، ويدعون عددا من الجند والجلادين وطبيباً لفحص المسكين وجس نبضه اذا أمروا بعذابه ، ولكى يقرر رأيه عن حالته الصحية ومايتنظر أن يحتمله من العذاب والآلام ولكيلا لايموت بين أيديهم من أول مرة تحت العذاب وليعترف إذا شاء عمن يعرف عنهم شيئا من معارفه ورفقائه

وقد وصف لنا المؤرخ دون جومس واسيلفا مذبحة (سنة ٩١١ — ٩١٢ هـ سنة ١٥٠٦ م) التى حدثت فى الاشبونة حاضرة بلاد البرتقال أيام الملك مانويل الاول، وكانت السبب فى إدخال ديوان التفتيش الى تلك البلاد. وهذا الوصف فى كتابه المسمى أسرار ديوان التفتيش

٧ — مذبحة الاشبونة

وملخص ماجاء فيه : أن تلك المذبحة حدثت فى يوم الاحد العاشر من شهر ابريل سنة ١٥٠٦ (الموافق ١٦ ذى القعدة سنة ٩١١ هـ) وكان يوم عيد الراعى الصالح قال :

لما أصبح الصباح على مدينة الاشبونة العاصمة أخذت أجراس كل الكنائس تصلصل صلصلة متواصلة بطيئة تدخل على النفس الحزن وتبعث الانقباض فى الصدر رغم جمال ذلك اليوم وشمسه الرائعة وصفاء سمائه وزرقتها الجميلة ، وكان يوماً من أيام الربيع البديع .

و إذا مانظر إنسان إلى العاصمة من التلال المحيطة بها رأى بحراً متحركا من الرؤوس البشرية،وهم جموع غفيرة من الاهلين،جاءوا ليحضروا ذلك الاحتفال الدينى وقد اعتم كل بعمامة تباين عمامة الآخر وتعصبوا بعصابات مختلفة متنوعة فمن اعتنق المسيحية وهو مرغم كانت عصابته حمراء وهؤلاء أجبرهم ديوان التفتيش على الكثلكة وكانوا من اليهود والمسلمين من بقايا الفتح الاسلامى ومن كان من أصل مسيحى كانت عصابته أو قبعته بيضاء أو من غير الوان . واجبر ديوان التفتيش بعضا من المسلمين واليهود على حضور تلك الاحتفالات وكانوا فى حالة يرثى لها وتتفتت لهـا الأكباد من الذل والهوان .

أما جماعة المفكرين الاحرار الذين كانوا يعدون فى نظر الكنيسة زنادقة فجرة لأنهم كانوا لايؤمنون بالكنيسة ولا يوافقونها على إتيان تلك الأعمال الوحشية الفظيعة أولئك الاحرار قد هربوا واختبأوا خشية جواسيس التفتيش أن يقبض عليهم بوشاياتهم و يكون موتهم وهلاكهم محققا محتما فى مثل ذلك الاحتفال

وكان ذلك البحر الزاخر من الشعب، يموج ويعلو كالأمواج ويرتطم عند أبواب الكنيسة الكبير وهناك أقيم حوض كبير من الرخام فيه الماء المقدس، فكان الناس يغمسون فيه أيديهم ويرسمون به اشارة الصليب على جباههم، ثم يتراجع فوج ليحل محله فوج آخر للغرض عينه .

وكان يشاهد وسط ساحة البيعة الكبيرة أعيان الشعب ورجال الدين وقد اصطف الحرس عن يمين وشمال، وكانوا من طبقات الاشراف بشعورهم المذهبة وملابسهم الزرقاء المخملية .

وأقيم مذبح كبير وسط تلك الساحة العظيمة . وقد غطى بالمخمل المذهب أما الابنية التي عليه فكانت كلها من الذهب والفضة والبلور . كل ذلك لكى تبهر عيون الشعب إذا ماوقعت عليها أشعة الشمس . وأقيم وراء ذلك المذبح وسط الساحة صليب كبير جدا عليه صورة المسيح مصلوبا، وكأنما هو يستعد لقبول توبة الخاطئين والكفرة، ومن لم يكن مسيحيا ولا يؤمن بأعمال الكنيسة والى جوار ذلك الصليب أقيمت منصة عليها آثار القديسين مثل عظام وصور قديمة، وقد زينت بالاحجار الكريمه، ولها اطارات من الذهب والفضة المصقولة الخالصة لها لمعان شديد فى ضوء الشمس فتضيف الى المنظر هيئة ووقارا وابهة

واجتمعت جماعات من الشعب داخل الكنيسة وخارجها، وأخذ يحدث بعضهم بعضا عما كان ديوان التفتيش قد أزمع إجراءه فى ذلك اليوم المنحوس وكان فى وسط المذبح نجمة كبيرة أسموها نجمة المؤمنين أحدثت فيها أشعة الشمس لمعانا يبهر الانظار يحدث ألماشديدا فى عيون الناس المجبورين على التطلع اليها دائما

وصاح جاهل متعصب من الشعب عندما نظر إلى تلك النجمة اللامعة وأعجب بها وصرخ بأعلى صوته قائلا . عجبا عجبا .

وأخذ الآخرون يرددون نداءه وكان كالرعد القاصف وأخذوا يصيحون عجبا . عجبا . الويل للزنادقة :

وقال الكهنة :

عجبا . عجبا : اظهر مجدك يارب ، و بارك المؤمنين .وأخذ الناس يقرعون صدورهم ، فصاح الكهنة قائلين:

اركعوا يا أهل الاشبونة اركعوا فقد اشرق نور السيدة العذراء .

وجاءوا بالصلبان من داخل الكنيسة وصاح أحد الكهنة مخاطبا تلك الجموع :

ان النور الذى ترون ليس بنور السيده العذراء ولا هو من نور الله بل هو نور الشمس وانعكاس أشعتها ،وقد قالت السيدة إنها لاتشرق من نورها علينا لوجود كفرة بيننا لايستحقون مشاهدة ،النور الالهى ،فارجو الله أن يزيل أولئك الكفار عنا ومن بيننا . هيا ارجوه .

فصاح الشعب المتعصب كانه رجل واحد وبصوت كصوت الرعد قائلا

الويل للزنادقة . الويل للكفرة

ثم نهضت تلك الألوف المؤلفة وسارت فى موكب كبير وأخذوا يصيحون بالويل والثبور وعظائم الأمور و بالقتل لكل اليهود والزنادقة والكفرة والملاحدة . واجتمع الشعب على يهودى،فقتلوه شر قتلة واعترض معترض عليهم فاستعملوا الخناجر بمهارة فى جسده ، واشتد اللجب والصراخ ، وسار الكهنة فى مقدمة الجماهير تصحبهم صلبانهم وراية الخلاص لكى يؤججوا من حماسة الشعب المتعصب الجاهل . وأخذت المذبحة تمتد رويدا رويدا على أنحاء المدنية وأخذ كل من يتوقع شراً فى الهرب من الموت ، فكانوا إذا وصلوا إلى البيعة الكبيرة ليحتموا بها طاردتهم القساوسة حاملى الصلبان . فكان لا بد من وقوعهم فريسة للموت بيد الشعب الهائج .

ولما انتصف النهار كانت الطرق والميادين ملأى بالجثث وقد وضعت فى أكوام مكدسة ، وسار المنادون من قبل ديوان التفتيش وهم يستنهضون الشعب لقتل اليهود ولكل مقاوم للكنيسة، وهم يباركونهم ان هم فعلوا ذلك وكانوا يقولون : الويل لهم انهبوا ، ومن لا ينهب معكم فاحرقوه بالنار . وقتل الشعب الهائج النساء وقد حملوا أطفالهن وقتلوا معهن تلك الاطفال البريئة ، وكانوا يدخلون الى البيوت ليقضوا على فرائسهم، ثم كانوا يحرقون دورهم مع الجثث التى فيها . وحاول بعض النساء تخليص أطفالهن برفعهم فوق رؤوسهن، ولكن أين أين الخلاص والموت الزؤام واقف لهم بالمرصاد فالشعب ثائر وكهنته تستحثه لارتكاب الفظائع التى تقشعر من ذكرها الابدان

ولما جاء الليل وأرخى سدوله امتدت المذابح والكهنة كالضباط يقودون الشعب لارتكاب المنكرات، وهم يحملون معهم تمثال العذراء وينشدون بعض أناشيد دينية باللاطينية، ويرد عليهم الشعب وهو يرتل لازمتها بلغة ولهجة مستنكرة، اضف إلى ذلك صلصلة الأجراس المتوالية ورائحة الاجساد المشوية التى كان يحملها دخان الحرائق

واستمرت المذبحة اليوم التالى وفى ليله، ثم اليوم الثالث والحالة تزداد سوءا حتى اضطرت الحكومة للتدخل فبعثت جندا ترد السفاكين وأعدمت بعض المذنبين شنقا ، وان يكن قد بقى غيرهم استمروا فى مذابحهم .

ثم رأى الكهنة أنه لا يجوز للشعب أن يقتل الكفرة بيده من غير محاكمة فسعوا لتأسيس محكمة ديوان التفتيش فى البرتقال ، و بعد بحث فى المسأله رضى الملك جوان الثالث بتأسيس ذلك الديوان فى بلاد البرتقال .

مطاردة ديوان التفتيش

للمسلمين واليهود

تمهيد

لو أنك قلبت صفحات التاريخ فلعلك لست بواقع على صحف أسود من صحف ديوان التفتيش . ولست تعثر بمن هو أشد قسوة وأغلظ قلبا وأبعد عن الرحمة والانسانية من رجال هذا الديوان . ولن تجد من هم أقرب الى الوحشية والبربرية وارتكاب الموبقات والمعاصى من تلك العصابات الآثمة الخاطئة ، تلك العصابات التى استغلت اسم الدين المسيحى لترتكب من الجرائم ، وتأتى من المنكرات البشعة مايذيب القلوب الرحيمة ويفتت الاكباد ، تلك الجماعات الاجرامية التى استترت خلف اسم الدين ؛ لترتكب أبشع الفظائع من قتل و تعذيب وهتك أعراض، وجمع للسحت من الأموال واغتصابها بكل طريقة يعرفها المتلصصة من الناس و بطرق تفننوا هم فى تنفيذها حتى بزوا بها كبار اللصوص ورؤساء عصابات السفاكين والقتلة المجرمين ، وكانوا هم المبرزين فى كل مايحمر له وجه الانسانية خجلا من ارتكاب كل ألوان البغى والفسوق والاثم والعدوان ، تلك الجرائم التى لا يقرها عليهم من كان له ذرة من العقل أوكان على شىء ولو يسير من الانسانية الحساسة .

لقد كانت تلك العصابات — التى دعت نفسها برجال التفتيش — أدنى من البهائم العجم فهما لشىء يعرف بالانسانية والشفقة ، وكانت تلك العصابات تبيح لافرادها التفنن فى أعمال القسوة وابتزاز الاموال والاستيلاء عليها والفتك

بالاعراض بدرجة لاتبار بها فيها أكبر عصابات القتلة المجرمين منذ عرف تاريخ الاجرام حتى اليوم .

وإن تعجب فعجب من تلك الجماعات الخاسئة وقدأرادت أن تحجر على العقول فلا تفكر إلا بمثل مايفكر به أعضاؤها وأرادت أن تحتكر أعمال العقل فيما يعرض للانسان فى حياته فمن رأى رأيا مخالفا لرأى الكنيسة فى زعمهم — أو لرأى تلك العصابات التفتيشية فى الواقع — عوقب أشد العقاب ومثل به تمثيلا فظيعا تأباه الانسانية ولا يفكر فى إتيانه من عنده شيء من الرحمة والشفقة . ولكن أين تلك الرحمة والشفقة من أولئك الغلاظ القلوب الذين أرادوا أن يخضعوا كل شيء لارادتهم وكل السان لمشيئتهم وكل العقول والافهام لآرائهم ومعتقداتهم ؟ !

بل أين تلك الرحمة والانسانية والشفقة ، وقد كانوا يعاقبون بالظنة ويأخذون بالشبهة ويحرقون الاطفال، ويرهقون الشيوخ والعجزة والنساء الضعيفات بصنوف العذاب وألوان الاضطهاد وشتى الوسائل الجهنمية من الاجرام ؟!

لقد ادعوا المسيحية ولا نعتقد أن دينا سماويا يرضى بشيء مما أتوه ، وانتسبوا لدين عيسى بن مريم وحاشا أن يكون عيسى قد أوصى بتلك الفظائع والجرائم فانما كان يدعو للمحبة والسلام .

ونحن نجزم ونصرح بأنهم لم يكونوا إلا عصابات إجرامية أرادت أن تستغل روح الجهل والعماية التى كانت ضاربة أطنابها فى العصور التى قامت فيها

ويكفى أن تعلم أن تلك العصابات قد ظهرت أثناء القرون الوسطى التى عرفت بعصور التعصب الدينى المذموم تلك القرون التى حدثت فيها الحروب الصليبيـة الممقوتة اذ كانت تساق فيها الجيوش والجماعات المتحمسة لدين

القساوسة والرهبان الذين جعلوا انفسهم للناس اربابا من دون الله ـ المتعصبة لعقائدها النصرانية لغزو البلاد الاسلامية ولاستخلاص بعض أجزائها ـ فلسطين الارض المقدسة فى عرف الناس من يد أصحابها المسلمين ، بحجتهم الواهية الكاذبة ـ اضطهاد زوار القبر المقدس والاماكن المقدسة وبدعوى صد المسيحين عن زيارتها والتبرك بها .

قامت تلك الحروب الصليبية فى القرون الوسطى واستمرت زمنا طويلا وقرونا وهى تتشكل حسب الظروف والمناسبات بل حسب اهواء رجال الكنيسة ومآربهم الشيطانية وتتسمى باسماء عدة حتى إن بلاد فلسطين والقدس لما سقطت فى يد الأنجليز أثناء الحرب الكبرى الاخيرة صرح القوم بأنها نهاية الظفر وخاتمة الحروب الصليبية .

ومعنى هذا أن الحرب الأخيرة التى دارت رحاها فى الشرق إنما كانت حربا صليبية كالتى دعا اليها بطرس الراهب أثناء القرون الوسطى .

وفى كل زمان ومكان تُستَغَلُّ الجماهير الجاهلة بواسطة الدعايات المحرمة أيا كان شكلها ، وتأتى افراد أو تظهر جماعات ، أو حكومات ، لاستغلال روح الجماهير الذينهم أتباع كل ناعق فى الزمان المناسب و ينظمون أعمالهم و يرتبونها وفق تلك الروح الشريرة المستغلة لا لصالح الجمهور ولكن لمصلحة الافراد وشهوات الداعين والجماعات المرتزقة المنتفعة .

فان كانت روح العصر سياسية ألهب تلك الافراد أو تلك الجماعات الدعايات السياسية فى نفس الجمهور الساذج ودفعوه الى المطالبة بكذا والابتعاد عن كذا من المطالب ، وانتفعوا هم من غفلة الجمهور بكل وسيلة وبكل ما يمكن أن تصل اليه أيديهم من أسلاب وأنهاب من ذلك الجمهور الذى تولوا هم قياده وورطوه فى مواقف وزجوا به فى مشاكل . ولا يلبث ذلك الجمهور والشعب

المسكين أن يقع فى كارثة من جراء اندفاعه ، وعندها يتخلى عنه قواده وزعماؤه وأبطاله بعد أن يوردوا ذلك الشعب مورد الهلاك .

و إذا كانت روح العصر دينية قام أفراد فيه أو جماعات ودعوا باسم الدين وأسبغوا على أنفسهم مايزين فى عقول الجماهير باطلهم ، و كبروا الاكمام ونفخوها وأطالوا القلانس وتزيوا بزى الشياطين وارتدوا من الطراز مايستغفلون به الشعب لاحبا فى الشعب ولا طمعا فى ثواب أو خوفا من عقاب ، ولكن لقاء مآرب دنيوية سافلة وأمور شخصية وغايات نفسية دنيئة ، وليتردّ الشعب فى الهاوية مايتردى، وليهو الى أسفل سافلين مايهوى ماداموا هم قد أشبعوا بطونهم وملأوا جيوبهم وامتعوا هم أنظارهم وقضوا هم لفروجهم لذاتها . وما داموا قد سكنوا هم القصور ووطئوا على الدمقس والحرير وشربوا من الشراب مايحلو لهم ومايلذ وأكلوا من الطيبات مااشتهوا وطيف عليهم بصنوف الطعام الشهى والفاكهة ألواناً .

فلا يهمهم أن يشقى الشعب إذا هم سعدوا ولا يعنيهم أن يلحق به البؤس إذا هم تنعموا .

١ — كيف نشأت عصابة التفتيش

ذكر المؤرخون بدء أعمال تلك العصابات التى أخذت على عاتقها أن ترد عن النصرانية أخطار الالحاد والكفر والزندقة وأن تصد عن النصارى مصائب خافوا أن تحيق بهم فقالوا إنه قدقامت فى مدينة ألبى احدى مدن فرنسا الجنوبية جمعية سرية للعمل —فى نظر رجال الكنيسة — على هدم الدين وبث الالحاد فى عقول الناس ونسبت تلك الجمعية الى المدينة التى ظهرت فيها فسمى أعضاؤها بالألبيين Les Albigemees

ولقد كان الحافز لهذه الجمعية على القيام بعملها ما كان قد غلب من سلطان القساوسة ، واستخدامهم هذا السلطان الروحى فى افساد المجتمع وقتل روح النشاط فيه .

فرأى البابا أنوسان الثالث أن يعمل على هدم تلك الجماعة التى زعزعت العقائد وكادت تقضي على تعاليم الكنيسة وسعى البابا المذكور الى محاربة الألبيين ، وكان ذلك فى أوائل القرن السابع الهجرى الثالث عشر للميلاد . وكانت حروب جنوب فرنسا قضى فيها على تلك الجمعية الهدامة للدين ولتعاليم الكنيسة .

ولما رأى أحبار الكنيسة ماقد حدث رؤى أنه من الحزم ان تنشأ قوة منظمة لمقاومة الالحاد والزندقة وعهد البابا الى الآباء الدومنيكيين بتلك المهمة لمطاردة الكفرة والزنادقة فى نظرهم وأن يعملوا على عقابهم مستمدين العون من ذوى النفوذ المدنيين ومن العظماء فى ذلك العصر . وكان ما كان مما تراه بعد .

وقد انشئت تلك المحاكم التفتيشية فى فرنسا و إيطاليا وألمانيا وفى مملكة أراجون و بلاد البرتقال . وقد جد الديوان حتى قضى على جمعية « الألبين » واشتدت المحاكم على المتهمين بالزيغ عن عقيدتهم الكاثوليكية .

٢ – جمعية الالبيين

قضت محاكم التفتيش وطرها من تلك الجمعية الملحدة – فى نظر رجالها – ووجهت اهتمامها إلى القضاء على اليهود والمسلمين .

ويقال : ان الكنيسة قاومت جماعة الالبيين زهاء قرنين .

إلا أنه مهما قيل فى مطاردة الالبيين فليس ذلك بالشيء المذكور بالنسبة إلى مطاردة المسلمين واليهود، وقد استغرقت زمناً أطول وكانت صنوف العذاب تتجدد، وكان الذكاء البربري المتوحش موجها إلى التفنن فى اختراع وسائل جديدة من سبل التعذيب والمطاردة ، وكانت عصابات التفتيش قد كلبت لمقاومة الخصوم واشتدت عليهم لما عرف عنهم من غنى وثروة وما طمعت فيه تلك العصابات المنسوبة للمسيحية ظلما مما كان للمسلمين واليهود من أرض وضياع ونقود وجواهر ، كما طمعوا فى أعراض نسائهم و بناتهم وتسابقوا إلى القبض على كل من يقع فى أيديهم فريسة ، وتفننوا فى عقابهم وأخصبت أدمغتهم واستعملوا ما بها من ذكاء لضرر الناس الآمنين الوادعين ، وتحولوا إلى اليهود فى الأراجون واتحدت مملكة الأراجون مع قشتالة سنة ٨٨٤ هـ (سنة ١٤٧٩ م) وكان فرديناند الكاثوليكى المتعصب ملكا على الأولى و إيزابيلا الكاثوليكية الملكة على الثانية وقد وقعت الملكة تحت تأثير (توماس دى تركو يمادا) أحد الرهبان الدومينيكيين وكان قسيسا لها قبل أن تكون ملكة . وحملها يوما على أن تعده بتكريس حياتها لاستئصال (الكفرة) إذا هى وليت الملك . وقد عرف عن

ذلك الراهب تعصبه و بغضه الشديد لـكل من خالف الكثلـكة وكان يرى كل وسيلة واجبة لاستئصالهم .

وانقادت الملكة إلى ارشاداته وأقنعت زوجها واستصدرا أمراً من البابا لانشاء ديوان مقدس فى قشتالة فلم يتأخر سكستوس الرابع عن اصدار أمره فى شهر رمضان سنة ٨٨٣ هـ (نوفمبر سنة ١٤٧٨ م) . ثم أنشىء ديوان فى أشبيلية فى شهر رجب سنة ٨٨٥ هـ (سبتمبر سنة ١٤٨٠ م)

وكان الديوان يرتاب فى سلوك متنصرة اليهود[١] الذين اضطروا إلى اعتناق الـكثلـكة فرارا من القتل والتعذيب والأذى.وكانت الـكنيسة تستند على شيء من مظاهر الحياة العادية لاتخاذها أدلة على الزيغ والمروق .

فـكان كل يهودى متهما إذا ما ارتدى يوم السبت ثيابا نظيفة أو أحسن مما كان يرتدى فى غير السبت أو كان لا يضرم ناراً فى منزله ليلة السبت أو كان يأكل مع يهودأو أنه أكل لحم حيوان ذبحه يهود أو شرب شرابهم أو غسل ميتا بالماء الحار أو جعل وجه المحتضر إلى الجدار أو سمى ذريته بأسماء عبرية أو غير ذلك مما يأتيه اليهود عادة .

فاذا ما قبض على متهم أيا كان أودع السجون وحوكم وحكم عليه بأحكام هى غاية فى القسوة الغريبة التى تأباها النفوس الرحيمة .

وإليك ما يقوله ليورنتى ذلك الحبر الـكبير الذى ظل زمناً طويلا أمينا لسر ديوان التفتيش الاسبانى الأعلى :

لا أرى من سبب لبيان صنوف العذاب التى كان يعاقب بهـا الديوان

---

(١) نقل فورد فى كتابه اليهودى الدولى صفحة ٣٣ عن زومبارت أنه فى الثانى من شهر أغسطس سـنة ١٤٩٢ طرد أكثر من ثلاثمائة الف يهودى من أسبانيا دفعة واحدة .

المتهمين اذ قد وصفها كثير من المؤرخين وصفا دقيقا . ولكنى أقول إنه ليس من بينهم من يتهم بالمغالاة والمبالغة فيما يروى . ولقد أتيت على كثير من القضايا قراءة وتلاوة فتولانى الرعب وملأنى الاشمئزاز المصحوب بالرجفة والخوف . ولم أر من رجال التفتيش الذين لجأوا إلى أمثال تلك السبل الا رجالا قد انتهى جمودهم حتى غاية البربرية . اهـ

وكان فى مقدمة العقوبات التى يحكم بها الديوان الحرق علنا فى إحدى ساحات المدينة بعد أن يطاف بالمساكين أو بتمثال يرمز به لمن توفى منهم أو لمن فر قبل الحكم عليهم . ومن الملوك من كان يشهد تلك الحفلات فقد كان فيليب الثانى ملك أسبانيا متعصبا تعصباً أعمى . وكان لديوان التفتيش من النفوذ والسلطة فى أيامه الشىء الكثير .

وفى يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة ٩٦٨ هـ (العشرين من شهر اكتوبر سنة ١٥٥٩ م) أريد حرق اثنتى عشرة ضحية من ضحايا الديوان فى الساحة الكبرى بمدينة الوليد وقد حضر الملك فيليب الثانى الحفلة الكبرى وهرع إليها ألوف من أقاصى البلاد من الاسبان للتمتع بمرآى التنفيذ الوحشى .

ولما انتظم الاحتفال الرهيب نهض الملك من فوق عرشه وأقسم بأن يحافظ على التقاليد الدينية الكاثوليكية وأن ينصر الديوان المقدس .

ومر على الملك المحكوم عليهم بالاعدام حرقا وكان من بينهم سيد نبيل له بالبلاط صلة مصاهرة . فصاح فى وجه الملك لما مر به قائلا :

— كيف يسلم ملك مثلك سيدا مثلى لهؤلاء الكهنة ! ؟

فاجاب فيليب قائلا :

— لو ارتكب ابنى اثما لاعددت بنفسى له المحارق لازهق روحه .

ولو فرضنا أن مذنبا جوزى بمثل ذلك العقاب الصارم فماذا جناه أهله وذووه كما كان يحدث أحيانا هناك ، إذ كانت يد العقاب تمتد إلى الاسرة والاولاد والذرية الأطفال البرآء.

وقد صدر فى سنة ١٥٠١ أمر ملكى ينص على حرمان أولاد وأحفاد كل من حكم عليهم الديوان من جهة الابن من ولاية وظيفة ما ، سواء كان ذلك فى المجلس الخاص أو فى القضاء أو بالمجالس البلدية ، أو فى أى عمل لمزاولة الجراحة أو الصيدلة أو تسجيل العقود .

وهذا اشتطاط فى الأذى لا ندرى ان كان له مثل فى أى زمان أو فى أى مكان آخر ؟

٣ — اضطهادات المسلمين ونفيهم وتشريدهم

على أن الاضطهاد لم يكن قاصراً على جماعة الملحدين واليهود فحسب ، بل عم المسلمين بجزيرة ايبريا ، ولم تفد المعاهدات ولم تغن الاتفاقات المعقودة بين المسلمين الاندلسيين وبين ملوك وأمراء الأسبان بعد أن سقطت غرناطة فى يدهم فى شهر يناير سنة ١٤٩٢م (يوافق ربيع الأول سنة ٨٩٨هـ)، وبعد أن تعاهد المسيحيون والمسلمون على أن تحفظ للمسلمين حريتهم الدينية ، وأن يحافظوا على تقاليدهم ، وأن يأمنوا على أرواحهم وأموالهم .

ولم تكن تلك المعاهدات إلا قصاصات من ورق أو خرقابالية . فقد تنمر للمسلمين الذين عاهدوهم ونكثوا بعهودهم بعد زمن يسير لا يكاد يزيد على ثمانية أعوام . لأن الأ فكار الصليبية مابرحت هى المتغلبة على عواطف الكنيسة الكاثوليكية التى أثارت تلك الحروب الشعواء من قبل ذلك بقرون .

ولقد خيل للمسلمين أنهم اذا دخلوا دين المسيح واعتنقوا الكثلكة فسوف ينجون من العذاب وسوف يتقون الأذى .

وقد قيل : ان خمسين الفا من المسلمين قد تنصروا لأول مرة سنة ١٤٩٩ (يوافق سنة ٩٠٤ — ٩٠٥ هـ) لما أساء القساوسة اليهم . فحدثت فتنة كبيرة بغرناطة ، وقبض فيها على كثير من أولئك البائسين .

ولكن التنصير لم يفدهم شيئاً . فقد كانوا موضع الريب وموطن الشكوك دائما . وكانت أسبانيا تخشى من مسلمى غرناطة الكثير عديدهم ، لقربهم من أفريقية ، ولوجودهم فى وسط نصارى الأسبان .

أما تلك الشراذم الصغيرة المشتتة فى بقية أنحاء البلاد فما كان لهم من

بأس يخشى . وقد عرف المسلمون هناك بالنشاط ، وما هم عليه من الغنى والعلم وكانت لهم معرفة حسنة وبراعة فائقة فى مزاولة الزراعة والصناعة . وكانوا متفوقين فى مختلف العلوم والفنون ، مع نشاط وعفة وجد ، وكانوا أهل مثابرة ولهم إنسانية ورفق ، ومع هـذا كله فقد اشتط المسيحيون فى معاملتهم ، وإكراههم على الخروج عن دينهم ، واعتناق دين آخر . وقد حاولت الكنيسة ذلك ، وأخذ الرهبان والقساوسة فى بث دعايتهم الملحة وتعاليمهم بين الفقهاء وذوى النفوذ منهم ، محاولين وعظهم وإقناعهم باعتناق مذهبهم . ولكن مسعاهم قد خاب ولم يفد الوعظ شيئاً . وقد أخذوا فى أعمال الاضطهاد ، وطاردوهم أى مطاردة وحاربوهم بكل وسائل العنف والعسف . وتولى كبر تلك المؤامرة على الاسلام فى تلك البلاد الكردينال كمنيس مطران طليطلة والدوق ديجوديزا خليفة (تركويمادا) الراهب . كل ذلك يحدث باسم المسيح ، حتى أثر عن ايزابيلا[1] قولها :

« إن حب المسيح والعذراء جعلني أميل لارتكاب الأعمال المؤدية للبؤس والشقاء وخراب البلاد والملك »

لاشك أن مسيح ايزابيلا الذى دعاها حبه إلى هذا الخراب ليس هو بالمسيح الذى جاء يدعو للسلام .

لم يمل كمنيس من حمل الناس على التنصير ، وحث المطارنة والقساوسة على التأثير على الناس بكل الوسائل .

---

(١) من الغريب أن يكون لليهود نفوذ فى بلاط اسبانيا فى ذلك العهد . فقد كان لويس ده سنتاجل هو التاجر الشهير ببلنسية وجامع الضرائب الملكية ، وقريبه جبريل سانخز أمين الخزانة الملكية وصديقه خوان كبيريرا الحاجب الملكى من اليهود المتظاهرين باعتناق الكثلكة .

مثال ذلك : مافعله بأهل غرناطة و إيعازه إلى مطرانها الدوق تالافيرا ، و كان ذلك سنة ١٤٩٤ م (يوافق سنة ٨٩٩ — ٩٠٠ هـ) فقد جمع علماء المدينة وفقهاءها وأخذ فى دعوتهم الى اعتناق الكثلكة وحباهم بالعطايا والهدايا . فتظاهر البعض باعتناقها خشية الاضطهاد أو لنيل الحظوة ، وحاول البعض الآخر الاحتجاج على أعمال رجال الكنيسة قائلين : بأن هذه الأعمال تنافى ماأخذ من عهد وما دون من ميثاق ومعاهدات عند فتح غرناطة . ولكن كمنيس لم يكن يبالى باحتجاجاتهم بل لوح لهم بالعنف والعسف ، وزاد على ذلك أن جمع المصنفات الاسلامية والمصاحف وأشعل فيها النيران .. ويقدر بعض المؤرخين عدد ما أحرق من مؤلفات وغيرها بثمانين الف مجلد . ويبالغ البعض فيرفع عددها إلى الف الف من المصنفات فى مختلف العلوم والآداب . و بذا سار فى طريق تركويمادا الذى أحرق مؤلفات اليهود بمدينة شلمنقةسنة ١٤٩٠م (٨٩٥ — ٨٩٦ هـ)

و يقال : بأن كمنيس أمر بحرق ثلاثمائة كتاب طبى كانت لجامعة القلعة ، صنفها المسلمون الذين كانوا أساتذة الطب فى العالم حينئذ .

أثارت تلك الأعمال الاضطرابات بين مسلمى غرناطة فى البشرات والبيازين وأخذوا يفكرون فى الدفاع عن دينهم . وقام الملك فرديناند ليقمع تلك الاضطرابات وأوعز كمنيس اليه بأنه فى حل من نقض عهده مع المسلمين لخروجهم عن طاعته وقيامهم بالثورة ، فهم قد خانوا عهده ، وقال له : ان ساعة تنصيرهم قد حانت والا فليودعوا أسبانيا الوداع الأخير . وتقدم اليه ديزا زعيم محكمة التفتيش بأنه يجب عليه أن يأمر بانشاء محكمة فى غرناطة . وأمر الملك بتأليف لجنة يعهد اليها فى تحقيق أسباب الثورة وما جرته . وقبض على كثير من المسلمين بتهمة الدعوة إلى الثورة والانتقاض . وظن البعض من مسلمى غرناطة أن اعتناق المسيحية

ينجيهم من العذاب والسجون ، ولكن خاب ظنهم بما ارتكبت معهم محاكم التفتيش ما ارتكبت .

وانظر إلى التحايل للتعمية على الحق . فان الملكة والملك تظاهرا بمعارضة الفكرة لانشاء محكمة تفتيش بغرناطة على أن يقدم كل منهم إلى محكمة التفتيش بقرطبة . ولكن القساوسة ما كانوا يقنعون بذلك ، بل سعوا بكل ما أوتوا من قوة وبأس حتى جعلوا فرديناند الكاثوليكى على ريبة لاتنقطع من المسلمين ومن أعمالهم ومن خوف اتصالهم باخوانهم فى الدين بأفريقية . وأصبح يعتقد الاعتقاد الجازم بأن سلام أسبانيا لا يكون إلا فى إخراج المسلمين منها ، أو فى إجبارهم على الكثلكة .

٨ – آلات التعذيب بمحاكم التفتيش

كانت قاعة التعذيب مظلمة رطبة ، جدرانها سوداء . وقد ثبتت فيهامسامير ناتئة قد صدأت ، يغلق عليها بباب من الحديد السميك وفى أرضها سلاسل ضخمة مشدودة إلى حلقات فى الأرض . وكانت تلك السلاسل لربط المذنبين حين تعذيبهم . و إلى جانب ذلك توجد مجالد من الجلد المعقود على رصاص ودواليب وسحابات ذات مسامير صادئة حادة لتمزيق الأجساد ، وعضاضات حديدية لعض اللحم ، ثم أكاليل حديدية ذات مسامير حادة نائتة من الداخل تطوق بها جبهة المعذب ثم يأخذ المعذب بتضييقها شيئاً فشيئاً بواسطة مفتاح يدور بلولب حتى تغرز المسامير فى الرأس . ثم هناك كلاليب ذات رءوس حادة لسحب أثداء النساء من الصدور ، وآلات لسل اللسان من أصله ، وأخرى لتكسير الأسنان ، وأحذية حديدية تحمى لدرجة الاحمرار يلبسونها لمن ساء حظه ووقع فى يد أولئك الوحوش ، ثم أحذية أخرى حديدية ذات مسامير من الداخل يضعونها فى رجل السجين ثم يأخذ الموكل بالتعذيب فى تضييقها شيئاً فشيئاً ، وسفافيد حديدية متباينة الاشكال لتحمى فى النار وتستعمل لكى المعذب ، ثم مشنقة معلقة فى السقف لكى تشنق المعذب نصف شنق ،فلاهو حى فيرجى ولا هو بالميت فيوارى . ثم سلاسل ضخمة وأثقال حديدية معلقه أيضا فى نواحى مختلفه فى السقف ليربط فيها السجين و بينها ، فتتجاذبه وتمزق أعضاءه تمزيقاً فى جهات عديدة ، وتابوت . وكان عبارة عن خزانه حديدية يقف فيها المعذب وفى بابها ست من الحراب القصيرة المثبتة . فاذا ما أغلق ذلك الباب بقوة دخلت حربتان فى عينى المعذب فتنفذان من مؤخرة الجمجمة ،

وتدخل حربة فى قلبه وأخرى فى معدته وأخريان فى بطنه . ثم كانت توجد آلات كثيرة لطى الانسان وكسر عظام ظهره ، ثم أخرى لانزال نقط الماء البارد على رأسه بعد حلق شعره نقطة نقطه حتى يجن المسكين بعد ساعات أو زمن قليل . ثم اسفنج تغمس فى الماء المغلى لسلق المعذب ، ومطارق ثقيلة لسحق الرؤوس ، ثم صليب سمى (بصليب اندراوس) لصلب ضحايا التفتيش ، ثم مائدة كبيرة وضعت فى جانب البهو عليها ملاآت بيض وبجانبها برميل للماء . فاذا ما أغمى على معذب من شدة الألم يضعونه عليها ويلفونه بملاءة تبل بالماء البارد لانعاشه حتى إذا ما أفاق أعادوا تعذيبه .

وكان يوجد فى وسط القاعة (الجحش الخشبى) فكان يربط السجين اليه لازهاق روحه بواسطة التضييق على رئتيه ، فكانوا يطوقون صدوه بآلة حديديه ثم يأخذون فى تضييقها بواسطة لوالب حتى تنقطع أنفاس المعذب المسكين

وكانت أرض قاعة العذاب من خشب قديم قد هرأ ونخر السوس فى أجزائه تتصاعد منه رائحة كريهة . أما المكان الذى كان يجلس فيه رجال التفتيش فكان مملوءاً بالصلبان والكتابة التى تشاهد عادة على القبور يقصد بذلك القاء الرعب فى قلوب المعذبين ، وكانت تشاهد دماء من عذبوا من قبل عليها وكثيراً ما تركت جثث فى زوايا القاعة يقع عليها الذباب ويتصاعد منها كريه الروائح ليزيد كل ذلك فى خوف المساكين الذين وقفوا أمام محاكم التفتيش . وقد أحاط بهم رهبان فى ثياب سوداء وأغطيه سوداء تغطى وجوههم ورؤوسهم لاتظهر منها إلا عيونهم وقد وقفوا وفى ايديهم كتب صلاة يرددون منها أنغام محزنة ومخيفة وبأصوات كلها الخشونة .

وكان بعض هؤلاء الرهبان يجلس إلى جوار رئيس المحكمة يمدونه بالنصائح والارشادات فى مسائل التعذيب والحكم على المضطهدين . وكان من بين

هؤلاء القوم راهب يحمل بيده صليبا رسمت عليه صورة المسيح مصلوبا يأمر هذا الراهب المعذبين بادامة النظر اليه .

وكان يحضر التعذيب طبيب ، عمله أن يفحص كل معذب حتى إذا أغمى عليه أمر بايقاف التعذيب وإنعاش المسكين بشراب ما ليتحمل العـذاب فيعاد تعذيبه من جديد .

وكان يحظر على المعذب إبداء أى حركة أو صراخ أو أنين . وكان يكلف بأن لا يرفع صوته

وقد اخترعوا لذلك آلة حديدية كانوا يضعونها فى فم المعذب المسكين عوضا عن المناديل التى توضع لمنع الصياح . وقد جعلوا فى تلك الآلة مربعا على هيئة الصليب ليتنفس منه المعذب ولا يمكنه الصراخ منه .ومن المستحيل عليه أن لا يصرخ ولا يتألم وكيف يمكن ويتسنى أن يعذب مسكين مثل ذلك العذاب ولا يبدى حراكا أو يصيح من الألم الذى يمزق جلده ؟ !

٩ — محاكمة مسلم من بقايا المسلمين فى بلاد البرتقال

وكيفية استجوابه

أمام محكمة التفتيش

قبض على مسلم وسيق إلى المحاكمة . وكان ثبات ذلك الرجل أمام هيئة المحكمة مما دعا إلى زيادة حفيظتهم عليه والمبالغة فى تعذيبه .

جئ بذلك الرجل أمام المحكمة ، فقال رئيس المحكمة لجنود التفتيش :

ضعوا الحديد فى أصابعه الآن وقدموه الينا . ففعلوا

ثم جئ بذلك المسكين أمام المحكمة وقد أعياه الألم فسقط مغشياً عليه . فقال الرئيس :

— أوقفوه .

فأجاب أحد الحراس :

— انه لا يقوى على الوقوف

فقال رئيس المحكمة :

— إذاً فضعوه فى التابوت فانه يقف فيه .

فوضعوه فى التابوت وهو صندوق مربع فيه مسامير من الداخل ، فاضطر المعذب أن يقف رغم مابه من إعياء وضعف، ثم رفعوا الكمامة التى كانت على فمه ليتمكن من الاجابة على الاسئلة ، وعندها تنفس المسكين الصعداء طويلا . فأمر الرئيس بأن يسقوه قليلا من الخمر . فلما شرب قليلا منها تفتحت عيناه وحدث عنده شئ من الانتعاش ، وفحصه الطبيب حتى علم أنه قادر على الوقوف

والاستجواب ، فأبلغ ذلك هيئة المحكمة

فوجه اليه الرئيس الأسئلة الآتية . وكان يجيب عليها كما ترى :

قال الرئيس :

— ما اسمك ؟

— أنا مسلم مغربى

— كلابل اذكر اسمك المسيحى الجديد

— صموئيل فرناندس

— ان صموئيل هذا اسم يهودى

— لقد كان المسيح يهودياً أيضا

— قل صدقا : كم عمرك ؟

— ثلاث وثلاثون سنة مثل عمر المسيح

— إذن أنت مستعد للتضحية ؟

— باذن الله

— أتقبل ذلك وأنت راض ؟

— نعم

— إذن قل : من هو إلهك ؟

— هو إلهكم نفسه

— وما اسمه ؟

— الله فى سماء ملكوته

— بل قل معى : يسوع المسيح

فأجاب الرجل وهو يرتعد .

— يسوع المسيح !

— يظهر عليك أنك تأثرت من ذكر هذا الاسم ، أليس كذلك ؟

أجل !

— وما نوع ذلك التأثير ؟

— تأثير داخلى

— وماذا قال لك هذا الصوت الداخلى ؟

— لا أدرى ، فانى الآن لا أدرى ماذا أقول

— قل ما فكرت فيه بصوت مسموع

— لا أقدر على الكلام لأنى متألم جداً من الضغط على صدرى . والكلام لا يكون حسب الأمر بل حسب الاستطاعة .

— ستنظر ذلك جيداً جداً

ونظر الكاتب إلى الرئيس مستفهماً

فقال الرئيس : أظن أن ضرب وجهه بالسوط يمكنه من الكلام .

وسرعان ماجذبه أحد رجال التعذيب، وجعل يجلده على وجهه بجلدة سميكة مبللة بالماء ، فاحمر جلد وجهه . وكاد يخرج منه الدم وجعل يتلوى من الألم ،فقال له كاهن :

— تعال يا صموئيل تقدم واعترف أمامى بكل خطاياك ، وقل لى : بماذا تفكر الآن ؟ قل الحق قبلما يحل بك القصاص . تقدم يا بنى . الحق بيدك يا محمد لقد كان هذا اسمك قبل اعتناقك المسيحية . فلماذا سميت نفسك صموئيل ولم تختر اسم قديس مسيحى كبطرس أو بولص ؟ ثم نظر إلى الكاتب وقال أكتب :

— أين ولدت ؟

— فى طنجة

— أأسبانى أنت ؟

— كنت اسبانياً

— ولماذا تقول كنت ؟

— أقول هذا لأنى لست باسبانى لكى أظل اسبانيا إلى الأبد

— وأبوك ؟

— ليس لى أب فانه قد مات

— وأمك ؟

— ماتت أيضا

— وأين ماتا ؟

— فى سجون ديوان التفتيش

— أحرقاً ؟

— كلا بل تعذيباً حتى تهرأت اجسادهما . فماتا من شدة العذاب

— و بماذا اتهما ؟

— لقد كانا بريئين

— هل لك أخوة ؟

— أظن ذلك

— كيف تظن ! أين اخوتك وأين يقيمون ! ؟

— بل قل أولا : أين ماتوا وأين قبورهم ؟

— يظهر أنك تريد أن ينفد صبرنا معك . فسنبدأ بتعذيبك

— يسؤنى هذا

إذن أنت لا تريد أن تدلنا على البقية الباقية من اخوتك ولا عن مكان اقامتهم

ان الديوان المقدس لا يخفى عليه أن لك أخوة هم على قيد الحياة وهم يصلون في مساجد خفية . ألا تعلم أين هم ؟

— لا أعلم

— لما صدر الأمر بسجنهم هربوا ، فلا تعلم الى أين ؟

— كلا

— تذكر جيداً علك تعلم

— كيف يمكنني أن أتذكر وأنا مضطرب الفكر ضائع العقل ؟ !

— يجب أن تساعدنا على معرفة مقرهم حتى تخلص نفوسهم

— على غرار ماستفعلون معي الآن

— أنت تسكن مع امرأة ، فمن تكون هذه ؟

— زوجي

— كيف يمكنك ادعاء هذا ؟

— هي تريد أن يكون الأمر كذلك

— علمنا أنها مسيحية وأنت بهذا العمل تخالف آداب ديننا المسيحي وتنبذ العفاف ، فيجب عليك أن تسلم زوجك للديوان المقدس

— هل هذا هو العفاف والدين عندكم ؟

— نحن لا نجادلك بل نأمرك

— إذا كنتم تأمرونني فأولى بكم أن تقتلوني . وهذا كل مايمكن أن تفعلوه وعندئذ سوف تصلى زوجي من أجلي

— ويلك يا شقي ألا تزال مصراً على انكارك ؟ ! اصلح هفواتك وخطأك

يا هذا و إلا فانك سوف تدفع لعنادك ثمناً باهظاً ـ والآن فلنتم أعمالنا .

قل لنا : أين اخوتك وأين زوجك ؟

ـــ هم فى مكان أمين

ـــ ألا تريد أن تعترف بأ كثر من هذا ؟

ـــ إني اعترف الى الله خالقى فحسب . أنتم تعذبوننى والله يعلم أنى برىء

ـــ سوف تساق إلى التعذيب الآن فالاولى لك الاقرار

ـــ لا يعنيتى العذاب فان جسمى مخدر لا يشعر

ـــ اذا لم تجب على ماسألناك الآن فسوف تسقى الماء رغم أنفك ، يدفع اليك من حلقك حتى يقضى عليك

ـــ لقد احترقت رجلاى أولا بناركم فلم أمت حتى الآن

فقال أحد القسس ، وهو يتصنع الرقة والعطف عليه بصوت متكلف :ـ

ـــ اعلم يا بنى اننا لا نرمى من وراء تعذيبك إلا الى الاقرار عن بقية أهلك الذين تحبهم و بذا تنجى نفسك ونفوسهم ونصعد بكم إلى السماء

فأجاب الرجل : ـ

ـــ اذا صعدنا نحن إلى السماء فمن يهوى بكم أنتم إلى الجحيم وبئس القرار!؟

وعندئذ أشار أحد رؤساء المحكمة بيده إشارة سريعة إلى المعذبين المرتدين الثياب السود الواقفين أمام آلات التعذيب ، فهجموا عليه وأخذ البعض منهم يضع الحبال فى يديه وصدره معاً و يلفها لفاً ، وآخرون ربطوا رجليه بحبل دقيق ثم وضعوه على مائدة خاصة وأعادوا ربطه عليها ربطاً وثيقاً . وتقدم أحد هؤلاء المعذبين وهو يحمل جرة ملأى بالماء ، وتقدم آخر وفى يده قمع ، فقال الكاهن الموكل بعظة الخاطئين والصلاة لأجلهم :

ـــ والآن يا صموئيل لماذا تضطرنا يا بنى إلى تعذيبك واحداث هذه

الآلام لك مادمت قادراً على الخلاص من هذا كله إذا ما قلت لنا أين اخوتك وأين زوجك !؟

فأجاب الرجل :

— لا يمكنني أن أقول لكم شيئاً عنهم لأني قد وعدتهم وأقسمت لهم بأن لا أخونهم وأسلمهم لديوان التفتيش

فقال الكاهن :

— ولكننا لا نعتقد أنهم يرضون لك هذا الحال وهذا العذاب الأليم . . ان هذا السكوت لا يعد أمانة الآن بل يعد جنونا . . . قل قبل أن يبدأ الرجال بتعذيبك

— انني أشكر لكم إذا ما قتلتموني مرة واحدة

— دع عنك هذا العناد يارجل، واعلم جيداً انك سوف تموت دون أن يعلموا بأنك مت فداء لهم . والمحكمة سوف تقبض عليهم ان عاجلا وان آجلا فتكون قدمت أنت من غير ما فائدة . ومع هذا فان زوجك هذه سوف تنساك لامحالة وتتزوج سواك . وربما تكون قد خانتك الآن .

فصاح الرجل قائلا :

— صه أيها النذل الحقير ، واعلم جيداً ان عذابكم لجسدى لا يعنيني قدر تعذيبكم بكلامكم هذا الذى تلفظه ألسنتكم القذرة السامة !

وبكى الرجل وبدأوا بتعذيبه فكان صراخه يملأ القاعة ، ولكن ليس من منقذ ، بيد أن القسس كانوا وقوفا يصلون وبيدهم كتبهم يرتلون منها الأناشيد المسيحية .

وبينا هم يعذبون المسكين على هذه الصورة سيقت سيدة امام المحكمة

وكانت رابطة الجأش ذات شجاعة مدهشة ، ونظر اليها رئيس المحكمة بنظرات حادة كلها الحقد والغضب والانتقام ،وسألها قائلا :

ـــ ما اسمك يا هذه ؟

ـــ سوزانا فرناندس

وسمع زوجها المعذب ذلك فانأنيناً طويلا محزناً ، فقد عرف انهم قبضوا على زوجه المسكينة ، وانها وقعت بين براثن أولئك الوحوش العتاة . أما هى فلم تتمكن من معرفة من يعذب لما استولى على القاعة من ظلام . ولكنها عندما سمعت الأنين التفتت لترى من يئن وعندها أخذ رئيس المحكمة فى استجوابها وعيناه تتقدان شرراً ، ومنهما ينبعث الشر لالتفاتها واستمر يسأ لها قائلا :ـ

ـــ بنت من أنت ؟

ـــ لا أعلم

ألا تعلمين من هما أبواك ؟ !

ـــ كلا ، انما رأيت ذات مرة رجلا ماراً بحى تريانا فقالوا لى ان هذا أبى

ـــ أهذا كل شىء ؟ !

ـــ نعم

ـــ وما اسم ذلك الرجل ؟

فأجابت إجابة ساذجة قائلة :

ـــ قيل لى إن له اسمين : الأول الراهب ، والثاني الرجل المهيج

ـــ وأمك من تكون ؟

ـــ هى أمى

ـــ وأين هى ؟

— ماتت

— وأين ماتت ؟ هل سقطت في الوادي الكبير ؟

— كلا بل قتلت قتل العمد

— وكيف كان هذا ؟

— انها ماتت جوعا في سجون ديوان التفتيش

— وأين كانت تسكن قبل أن تسجن ؟

— مع رجل من بقايا العرب ، كان يمر ببابنا كل يوم وقد عزم أخيراً على أن يسكن معها إلى الأبد ، فسكن وسأنضم أنا لهما أيضاً

— وهل مات ذلك الرجل ؟

— نعم قد مات في سجون ديوان التفتيش .

— أكان مسيحياً ؟

— لا أدري . ومع هذا فلم تسألونني عن المسيحية كثيراً ؟ وما هو دخل الديانة المسيحية في ديوان التفتيش ؟!!

وما كادت السيدة تتم كلامها حتى بدأ رجال العذاب في تعذيبها تعذيبا مخيفا تقشعر من ذكره الابدان .

١٠ – طرق التعذيب فى محاكم التفتيش

ا — من طرق التعذيب عندهم ملء البطن بالماء ، وكانوا يضعون المعذب المسكين على قطعة من الخشب تقريباً ، وقد ارتفع الجزء الذى يربط إليه رأسه عن الجزء الذى تربط اليه أقدامه وساقاه بواسطة حبال متينة كما كانوا يربطون صـدره بمثل تلك الحبال . ويأتى رجل من رجالهم بقمع يضعه فى فم المعذب وأمامه آخر يحمل جرة ملأى بالماء ، ويأخذ فى صب الماء داخل القمع شيئاً شيئاً والطبيب إلى جوارهما يراقب التعذيب ليرى إلى أى حد يمكن للمسكين أن يحتمل ذلك النوع من العذاب الذى يؤدى إلى قتله اختناقا

وكان يقف أحد القساوسة إلى جوار ذلك المنظر المؤلم وهو يسأله أيعترف أم لا ؟ فاذا ما أبى أمر حامل الجرة أن يزيد فى سكب المـاء حتى ينتفخ بطن المسكين وتجحظ عيناه ويموت اختناقاً بالماء .

ب — وكثيراً ما كانوا يضيفون إلى ذلك نخس المعذب بالدبابيس فى أعصابه وشرايينه ساعة صب الماء

حـ — ونوع آخر من التعذيب كان بواسطة حرق القدمين وإليك البيان :

يربط المعذب إلى كرسى طويل (دكة) ربطا محكما بواسطة الحبال المتينة حتى يصبح كأنه جزء من الخشب المربوط اليه لا تمكنه الحركة وكانوا يتركون القدمين خارج الـكرسى فوق موقد به نارتلتهب وتضطرم اضطراما . والموقد له لولب يرفع النار ويخفضها كلما أريد ذلك . فكان إذا بدىء فى التعذيب ابتدأوا فى رفع الموقد وهم يستجوبونه ، فاذا ما أصر على الانكار فى عرفهم تركوا قدميه تحترقان فاذا تمت العمليـة فكوا وثاقة وأمروا المسكين بالوقوف والمشى ، واستعملت

السياط فى قفاه وجسمه حتى يصل المسكين لسجنه و يقضى نحبه فيه .

د — ونوع آخر من التعذيب بواسطة تفتيت الأعضاء وتكسيرها و بيان ذلك هو :

يعرى الشخص كله وتستر عورته بخرقة ويوضع حبل متين جداً فى وسطه تحت الابطين ، و يعلق الحبل إلى بكرة فى السقف . ثم يجذب الحبل فيرتفع الجسم ثم يترك فيهبط بسرعة بمقدار قامة الشخص أو يكون بين نهاية الحبل والأرض شبر أو نصف متر على الأكثر .

وتكرر العملية المذكورة عدة مرات. وكانوا أحيانا يجعلون القدمين لا تصلان إلى الأرض وعلى العموم يكون طول الحبل من السقف حتى منتهى سقوط المسكين ستة أمتار أو أكثر .

هـ ـ التعذيب بواسطة تمزيق الأعضاء :

يعلق الرجل أو المرأة إلى السقف وتربط كل يد وكل رجل إلى حبل مثبتة فى بكر فى الزوايا الأربع للغرفة ، وتوضع أثقال فى أطراف تلك الحبال كل ثقل منها مائة كيلو جرام ، فتجذب تلك الاثقال أطرافه و يبقى المسكين كأنما هو نائم وهو معلق فى الفضاء وتتمزق أطرافه على هذه الكيفية إن لم يعترف لهم بكل شىء وهم يسألونه أثناء اجراء العملية ، وكلما أصر على السكوت وعدم الاجابة زادوا فى وضع أثقال جديدة و يبقى كذلك حتى يموت.

و — التعذيب بواسطة الدفن على قيد الحياة :

وكان يجرى ذلك أمام الناس، فكان رجال التفتيش يتخيرون جدارا فى طريق كبير أو ميدان عام و يحفرون فى ذلك الجدار قبرا يوضع فيه المسكين أو المسكينة ،و يعاد البناء كما كان .

وكانوا يتركون فتحة صغيرة لكى يراه الناس منها وهو يقترب من الموت أو الموت يقترب منه رويداً رويدا .

وويل لمن وقف على قبر كهذا وتأفف أو تحسر على الدفين أو أظهر امتعاضاً من أعمال المحكمة القاسية .

ز ـ وعذاب اختص به النساء العنيدات اللواتى كن يشتمن رجال المحكمة عند المحاكمة .

وذلك بتعرية المرأة الا ماستر عورتها وكانوا يأخذونها إلى مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها وهى على هذه الحالة السيئة ولا يمكنها الحراك . وكانوا يربطونها الى القبر بسلاسل حديدية ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كانما هى جنية سيما إذا ما أرخى الليل سدوله . وتترك المسكينة على هذا الحال إلى أن تجن أو تموت جوعا ورعباً . وكان رجال التفتيش يعتقدون أن الروح الشريرة هى التى تتكلم فى المرأة . وهم يعتقدون أن القبور مسكن لذوى الجنة والشياطين .

١١ – عدد الضحايا

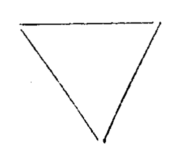
ويقدر عدد ضحايا ديوان التفتيش فى بلاد البرتقال، الصادر بتعذيبهم وقتلهم أحكامامن أربع محاكم (وهى :الأشبونة وايفورا وكويتبرا وكرا) بنيف وخمسين الفاً وأحد عشر شخصا ، منهم ٢٨الف رخل والباقى من النساء . ويدخل فى عداد ذلك من أحرقوا وهم أحياء فى الميادين العامة أو من ماتوا فى سجون التفتيش .

هذا عدد أخذ من الدفاتر الرسمية لديوان التفتيش . والله تعالى وحده أعلم بعدتهم الحقيقة لأنه لا يعلم بصحة عددهم إلا قليل

وقد ظل ديوان التفتيش يعمل فى بلاد البرتقال نيفا واحدى وثمانين ومائتى سنة بلا انقطاع .

وقد ألغى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٢١ م (الموافق ليوم ٨ رجب سنة ١٢٣٧هـ)

والفضل فى إلغائه راجع إلى المركيز دو بوميال وفرنشيسكو سيمون مارجوكى ، وكانا عضوين فى مجلس نواب تلك البلاد . وقد اقترح الاثنان أمر الالغاء . وتم ذلك بعد أن شهدت تلك البلاد من فظائعه ما تقشعر لهوله الأبدان



ضحايا محاكم التفتيش

من العلماء والمفكرين

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ » « أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ »

قرآن كريم

يموت من الناس المئات والألوف فلا يكاد يذكرهم إلا ذوو قرابتهم أو من كانوا فى جيرتهم ومن عرفهم ، ثم يتناساهم هؤلاء أيضاً بعد زمن وجيز .

أما إذا مات عظيم من العظماء ، أو كبير من الكبراء ، أو عالم من العلماء ، أو مفكر باحث غزير المادة قوى الجنان، فعندها يشعر الناس برنة الأسى والأسف تتردد فى الأرجاء دانيها وقاصيها ، وتهتز أو تار القلوب حزنا ، حتى قلوب من لا قرابة لهم به ، أو من لا لحمة نسب لهم به أصلا ، إلا صلة العلم والتفكير ونشدان المثل الأعلى للحياة الروحية . ولا يزال الناس يذكرون ذلك العظيم ويرددون اسمه والعظيم — فى رأينا — من أفاد الناس بتجارب علمه أو بما بذله من جهود صادقة لخير الانسانية ومنفعة البشر ، وضحى فى سبيل ذلك بقواه وما أوتى من بأس وما أنعم الله عليه به من نفيس فى هذه الحياة .

وكذلك قد رفع الله الناس درجات بعضها فوق بعض فى الحياة الدنيا ، وجعل لهم منازل من الذكر الجميل والأثر الطيب الذى يمتد بعدهم إلى القرون وآلاف السنين بعد أن يستريحوا الراحة الكبرى .

والحق أن موت عالم كبير خسارة عظيمة دونها موت الألوف ممن عاشوا وماتوا ولم يكونوا إلا كأدوات متحركة إذا قاموا ، أو خشب مسندة ونصب نخرة إذا قعدوا ، وذلك راجع إلى أن تكوين عالم يحتاج إلى مجهود كبير حتى يصل إلى درجة من العلم ، دع عنك ما يجب أن يكون له من استعداد للنبوغ أو ميل إلى التفكير والبحث .

وأيسر لك أن تجد الألوف من الأكرة ومئات الألوف من العمال وصغار الكتبة فى الدواوين والمكاتب ، من أن تعثر على عالم أفاد الانسانية كاديسون مثلا . أوفيلسوف ككانت . ومن السهل أن تلد الامهات أولاداً لا يصلحون إلا للأعمال العادية فى الحياة من أن تلد الأمة بأسرها واحداً كمن ذكرنا ، يكون له مثل ذلك الجلد والصبر على التعليم والعمل والتفكير والاختراع ، وعلى إخراج مابعقله من كنوز ، وما بذهنه من عصير ، يكون فيه الشفاء للناس والنفع للبشر .

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لأوطانهم التى ينسبون إليها خاصة . فهم حق مشاع للانسانية تنتفع بمجهوداتهم ، وما أوتوا من نبوغ وما رزقوا من جلد وصبر للوصول إلى مايمكن الوصول إليه بعد البحث والتفكير .

والعلماء والمفكرون للناس عامة لا لبنى ملتهم ودينهم الذى ينتمون إليه أو ينسبون له فحسب ، فأيما عالم ظهر فى بلد ما ، هرع إليه الطلاب من أقاصى البلدان ومن شتى الاديان للانتفاع بمواهبه وورود ما يفيض به على الناس فى درسه ، و إذا ما احتفل به لمناسبة ما ، اشترك فى الاحتفال به صنوف شتى من الناس لايفرقهم دين أو مذهب لتكريم ذلك العالم . و إذا ماحل به رزء أو قضى أيامه فى هذه الحياة ، حزن الناس لمصابه وجزع الخلق من مصابهم فيه . ولا

ترانا فى حاجة إلى دليل على ذلك ، فالأدلة عديدة حتى إنا لنرى من فضول القول الاتيان بشىء منها .

لهذا يرى الناس أنه من العار على رجال التفتيش أن فعلوا مافعلوا بالعلماء والمفكرين ، سواء كانوا من مسلمى جزيرة أيبريا أو من غيرهم ممن اعتنقوا ديانات أخرى ، إذ كان رجال التفتيش يضطهدون العلماء،ويذيقونهم مر العذاب و يحرقون كتبهم ، و يكسرون أدواتهم و يحطمون بقاياهم ، و يضيقون على المفكرين و يزجون بهم السجون ، و يأمرون بحرقهم أحياء ، لا لسبب جنوه إلا أنهم بحثوا فى الفلك والحساب والطب ، أو انهم درسوا الفلسفة والآداب ، أو قالوا برأى لا ينطبق وما رسخ فى عقول رجال التفتيش من الجهل والظلمات .

والغريب أن أولئك القساوسة الجهال المتعصبين عن ضلال وقلة معرفة ودراية ، فعلوا مافعلوا بالمسلمين واليهود والمسيحيين أنفسهم فى أوروبا . ولما ذهبوا إلى أمريكا حرقوا نيفا وأربعة آلاف كتاب دونت فيها علوم (المايا) وهم قوم من الهنود الحمر كانت لهم حضارة ، ولا زالت آثارهم تحدث من يراها بما كان لهم من قدم ثابتة فى العلم والعرفان ، مئات بل ألوف السنين فى أمريكا الوسطى . و بحرق أولئك القساوسة لتلك الكتب والمجلدات قضوا على حضارة المايا فى أمريكا الوسطى كما قضوا على حضارة المسلمين فى غرب أوروبا ، ولم يبقوا منها إلا آثاراً تنعى من بناها ، ومخلفات تشهد بنبوغ أصحابها .

كان (جوردانو برونو) عالماً فلكياً ظهر أثناء القرن السادس عشر الميلادى ، وقد مهد السبيل لمن جاء بعده من العلماء وأرباب الأرصاد وعشاق الفلك ، قال (جوردانو)بدوران الأرض حول محورها وحول الشمس ، وذكر

أشياء عن الكواكب السيارة . وكانت له آراء فى عدم التناهى وامتداد اللانهاية فى عالم الافلاك

وكانت هذه الأقوال والآراء تخالف آراء الكنيسة وتناقض أقوال رجال الكهنوت وقساوسة التفتيش ، ولهذا قبض عليه رجال الديوان الذى كان فى مدينة البندقية (فينسيا) ، وأمروا بسجنه سنتين ، ثم سلم إلى ديوان التفتيش الروماني ، فحكم عليه بالحرق حياً فى الساحة العامة ، ونفذ ذلك الحكم الوحشى سنة ١٥٩٨ م (١٠٠٦ ـ ١٠٠٧ ﻫ) أيام البابا اكليمنصوس الثامن .

وفى ذلك القرن المذكور ظهر العلامة (دولت) وكان أيام (جوردانو) ، واشتغل بالفلك والطباعة وقد تعلم بباريس وبادوا وفى طلوشة (تولوز بفرنسا)

وقبض على دولت وزج به فى السجن وعمره أربع وعشرون سنة ، وذلك لأنه طبع بضعة أوراق فى المطبعة ومهرها باسمه ذكر بها بعض آراء فلسفية ، وقال بوجوب البحث فى أسرار السكون والخليقة ، ثم أطلق سراحه بعد أن تشفع له أسقف ايكس ، ولكن الديوان تعقبه وتتبعه ، ثم صدر أمر مجلس النواب بنفيه سنة ١٥٣٣ م (توافق سنة ٩٤٠ ـ ٩٤١ ﻫ) ، فسافر إلى ليون وأذن له سنة ١٥٣٥ م (٩٤٢ ـ ٩٤٣ ﻫ) بطبع كتاب أسماه (بحث فى اللغة اللاطينية) . وأحاط به جماعة لقتله فدافع عن نفسه وقد أحاطوا به وهم شاهرون خناجرهم وقتل واحداً منهم ، وقبض عليه وزج به فى السجن المظلم ، وكانت ملكة نبرة (نافارا) معجبة بعلمه وتفكيره ، وكانت تعلم أنه مظلوم ، فسعت حتى استصدرت أمراً من الملك بالافراج عنه سنة ١٥٣٧ م (٩٤٤ ـ ٩٤٥ ﻫ) فعاد (دولت) إلى طبع الكتب الفلسفية والعقلية ، فهال ذلك رجال الكنيسة ، فقبض عليه سنة ١٥٤٢ م بتهمة الزندقة والالحاد وزج به فى سجن

ديوان التفتيش خمسة عشر شهرا فى باريس ، وما زال يقبض عليه و يطلق سراحه حتى قبض عليه أخيرا وجىء به إلى مدرسة اللاهوت بباريس ، واجتمع القساوسة وحكموا عليه بالالحاد والكفر لأنه قال بوجوب اتباع فلسفة أفلاطون ، واتهم بتهمة إحداث ثورة فى البلاد وخلع الملك ، ولم يغن عنه دفاعه فحكم عليه بالموت ، فشنق فى السجن ، وجىء بجثته وأحرقت فى أحد الميادين هناك ، وكتبه معه ، وصودرت ممتلكاته وكتبه ، ولاقت زوجه وولده الصغير مالاقيا من بؤس وشقاء .

أما (فيانني) فكان مفكرا وفيلسوفاً له آراء فى الالهيات والمادة ، وله أقوال ونظريات فلكية ، وكان من جماعة الماديين ، وقد قبض عليه وحكم عليه فى باريس بقطع اللسان ، ثم بالاحراق وهو على قيد الحياة ، وقد تم ذلك سنة ١٦١٩ م (سنة ١٠٢٩ هـ) .

و إليك نهاية عالم آخر : (دميان دى كيز) المولود فى المُخَيِّر بالبرتقال سنة ١٥٠١ م ، وكان يشبه لوثر فى روحه وخروجه على التقاليد القديمة ، وقد عين فى عدة وظائف بالحكومة البرتقالية حتى عين سفيرا لها فى هولاندا سنة ١٥٢٩ م (سنة ٩٣٦ ـ ٩٣٧ هـ) ، وكانت أمه هولندية ، ثم استدعاه ملك البرتقال واتخذه كاتبه الخاص .

وحدثت بينه و بين أحد الكرادلة مناقشة ، فلاحظ هذا الاخير عليه أنه لا يعتقد كثيراً فى عصمة الكنيسة الكاثوليكية ، فشكا أمره إلى الملك ففصله من خدمته وعين آخر بدلا منه . ولم يلبث أن اتهم بالالحاد والزندقة فزج به فى سجن التفتيش ، وقيل ان القمل غطى جسده وأكله حياً ، ومات فى سنة ١٥٧٢ م (٩٧٩ ـ ٩٨٠ هـ) ، وصادر الديوان كل ماله وضمه اليه

وجاهرت سيدة تدعى (هابيتيا) ـ وكانت على درجة من العلم والتهذيب

كبيرة - بأفكارها الحرة ، فقبض عليها وهى فى الكنيسة ، وانهالوا عليها ضرباً حتى فاضت روحها وأمر القساوسة الجلاد بقطع جسدها أربعة أجزاء ففعل ذلك بفأس ! وقيل إنهم أطعموا القطع لكلاب المدينة .

أما (جاليليو) فله ذكر كبير عند أرباب الفلك والمشتغلين به ، فقد كان عالماً كبيراً وفلكياً له أبحاثه وآراؤه فى الفلك والسيارات وحركاتها ورصدها ، وله تواليف فى علم الفلك والهندسة .

استدعى رجال التفتيش (جاليليو) سنة ١٦٠٥ م (١٠١٤ - ١٠١٥ هـ) وعدوا مؤلفاته الخاصة بدوران الأرض وما شاكل ذلك من أعظم الأعمال الالحادية التى ليس بعدها من كفر ، وأن آراء لوثر نفسه لا تعدل مايراه هو ، وحكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن مع التعذيب ، فعلق الحديد بعنقه وتولى الجلادون تعذيبه ، ولما مثل أمام هيئة المحكمة جىء به عريانا حافى القدمين ولكنه لم يرجع عن رأيه فربط إلى الجحش الخشبي وجلد وألبس فى رجليه حذاء حديديا محميا له مسامير ، وعذبوه حتى غلبه الألم فعدل عن رأيه ليرحموه فكفوا عنه العذاب ، ولكنه عاد وقال به مرة أخرى ، فأعادوا تعذيبه وسجنه ولم يشفقوا على شيخوخته ، وألزموه أن يعترف عن مخبأ كتبه لحرقها وفرضوا عليه قراءة سبعة مزامير كل يوم كفارة عن خطاياه !

ورأى البابا ا كليمنصوس السابع أن يطلق سراحه لئلا يقضى وهو فى سجونهم ، فيتخذ البروتستانت فى المانيا وانكاترا موته ذريعة للتشهير بالكنيسة نظراً لبعد صيت جاليليو ، وقد أجبر على أن يتعهد بعدم طبع كتبه الالحادية فخرج وهو يخشى أن يعود إلى السجن .

وطورد الكونت (جيوفانى بيكود للامير اندولا) وكان أميرا إيطاليا ، وكان له ولع بدراسة العلوم والفلسفة ، وكان مفكراً كبيراً ، وقد ذاع ذكره وهو

فتى صغير ، لبراعته فى العلوم براعة خارقة للعادة . وخشى بابا ذلك الحين منه ومن تفكيره و من نظرياته وآرائه ، وخشى أن يؤدى ذلك إلى هدم الكنيسة و إسقاط هيبتها من نفوس الذين يتبعونها و يصدقون كل ماتقول من غير تفكير أو بحث . وألفت لجنة لبحث آرائه فى الدين والعلوم والفسلفة وما أذاعه من آثار تفكيره . فرأى القساوسة أعضاء اللجنة أن آراءه كبيرة الخطر على الكنيسة وأن بها كفرا ومروقا عن آراء الكنيسة . كان كل ذلك وهو الشاب الذى لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، ورد على قرار اللجنة بكتاب سنة ١٤٨٦ م (٨٩١ هـ) يبرر فيه ماقاله وما فكر فيه . ورأى أن الخير فى أن يذهب إلى اسبانيا ، ونما الخبر الى البابا فخشى أن يذيع الشاب آراءه ونظرياته فى تلك البلاد ، فكتب البابا لملكى اسبانيا (فرديناند و إيزابلا) بذلك وأن الشاب كافر خطر ، وأمر الملكين بالقبض عليه ومحاكمته أمام محاكم التفتيش . فاستعد الملك وسنحت فرصة للديوان لشحذ خناجره وآلات تعذيبه تأهباً للتشفى من المفكر الفيلسوف ، فلما علم هو بذلك عدل عن السفر الى اسبانيا واتصل بآل مديتشى على غير معرفة ، وكانوا حماة العلم والأدب فى ايطاليا أيامئذ ، فحموه ، وعين أستاذاً للفلسفة هناك ونشر كتبا ورسائل ، وتوفى صغيرا سنة ١٤٩٤ م التى توافق سنة ٩٠٠ ـ ٩٠١هـ .

وليس من قصدنا أن نأتى على ذكر كل من وقع فريسة لرجال التفتيش من العلماء والمفكرين . ولكنا قصدنا إلى ذكر أمثلة قليلة لما كانت تفعله محاكم التفتيش من مآثم لا تعد ولا تحصى . كانت دليلا على أن وحشية رجالها لا تقف عند حد ، ولا تختص بطائفة

ومما يذكر فى هذا الصدد أنهم كانوا إذا ماوقف أحد العلماء أو أحد المفكرين الاحرار أمام محكمة التفتيش، فانهم كانوا يوجبون عليه أن يخبر المحكمة عن آله

وأصدقائه وعن كل انسان يظن أنه على شاكلته فى الرأى وعن أماكن وجودهم وعن الكتب التى يطالعونها وعن مصادرها وعمن باعها لهم ، وعن أماكن اجتماعهم وعن محافلهم .

وبعد المحاكمة يؤخذ المسكين فتنفذ فيه العقوبة التى كان رجال التفتيش يتفننون فى كيفيتها أيما تفنن من ملء البطن بالماء ونخس المعذب بالدبابيس وحرق القدمين وتفتيت الأعضاء وتكسيرها وتمزيق الاعضاء والدفن على قيد الحياة ، وما عرف بجزاء العنيدات ، وحرق الجسم كله فى ميدان فسيح أمام الجماهير وغير ذلك مما قد نعود إلى البسط فى ذكره فى فرصة أخرى

وقد ظل ذلك الديوان قائماً فى أسبانيا و بلاد البرتقال وغيرها زهاء أربعمائةسنةدون انقطاع وقد خضدت شوكته فى أوائل القرن التاسع عشر عقب الثورة الفرنسية والامريكية.

ولا نحب أن ننسى ذكر ما أحرقه أولئك الوحوش المتبربرون من مئات المجلدات وآلاف الكتب التى أنتجتها عقول العلماء والمفكرين فى جزيرة أيبريا وغيرها وما رموا به إلى البحر والنهر، فذهبت تلك المؤلفات الثمينة طعمة للنيران والمياه ، ولم ينتفعوا هم بها ولم يتركوها لغيرهم ينتفع بها . ولو أن تلك المؤلفات أو بعضها وصل إلينا لوصلنا علم وفضل غزير ، ولكنها هى العقول الطائشة والأدمغة الفارغة من التقدير الصحيح للعلم والأدب تقضى فى سويعات على ماقضى فيه العلماء السنين ومئات السنين فى التأليف والتحبير لفائدة الانسانية وخير البشر .

١٢ – ديوان التفتيش باسبانيا

يقال إن القديس (دومينكو) هو أول من كان رئيسا للجلسة الأولى لهذا الديوان باسبانيا ، ولكن الذى كان له ذكر كبير هو (تور كويمادا) الذى عين رئيسا عاما لديوان التفتيش بأمر من البابا بنتو الرابع (سنة ٨٤٧ هـ – ١٤٤٣م) وكان مركز سلطته فى مقاطعتى الاراجون وكستيجا ، ويقال إن (توركويمادا) هذا من أسرة عرفت بالقسوة والشدة ، وكثيرا مااستخدم أجداده كجلادين فى بلاط الملوك الأولين ولكن (تومازدى تور كويمادا) بز أجداده فظاعة وشدة حتى ليقال إنه هو الذى تفنن فى أنواع التعذيب لذلك الديوان وعرف فيه الغدر والخيانة وأنه كان يذيق كل من يشتبه فى أمانتهم واخلاصهم له الموت الزؤام

وسبب موته أنه أراد الاعتداء على عفاف فتاة جميلة ثم كان يأمر بعدئذ بموتها كما كانت تلك عادته ، فما كان منها إلا أنها دست له السم فى خمر بيدها . والغريب أن البابا بنتو الرابع أدخله فى حظيرة القديسين وأصحاب المجد فى الكنيسة

وقد ظل ذلك الشرير المقدس سبع عشرة سنة فى أسبانيا حرق فى أثنائها سبعة عشر الف شخص وهم على قيد الحياة .

ولما مات ذلك العاتى أصدر البابا أمره بان تكون محكمة التفتيش مختلطة من جميع طبقات الرهبان وأن تصدر الاحكام باسم البابا. ومن ذلك الوقت أطلق عليها اسم (المحكمة المقدسة) وكان ذلك (سنة ٨٨٦ هـ — ١٤٨١ م)

وقد صدر مرسوم ملكى من ملكى أسبانيا حينئذ فرديناند وايزابلا بتأسيس ذلك الديوان والمحكمة المقدسة وأن تزاول أعمالها البربرية فى كل الجهات التابعة لهذين الملكين. وكان الرهبان والراهبات فى ذلك العهد يدعون (بآباء الايمان) وكان

المرسوم يعطى رجال الكنيسة الحق فى إدارة شئون ذلك الديوان وتعقب من يشتبه فى أمرهم من اليهود والمسلمين وكل من لم يكن يعتقد أنه كاثوليكى شديد التعصب لكثلكة وكانوا يتجسسون على الناس و يلقون القبض عليهم ، و إذا ماعرفوا بوجود من يقاومهم أو كان زنديقا كافرا فى عرفهم فى جهة أخرى غير ناحيتهم فانهم كانوا يرسلون لمطران تلك المقاطعة بأوامر ليلقى القبض على ذلك الشخص وعلى أسرته ويرسل بهم إلى ديوان التفتيش

وكان رؤساء ذلك الديوان وأعضاؤه يركبون عربات فخمة تجرها أربعة من جياد الخيل ، وتحيط بعرباتهم كواكب من فرسان شهروا سيوفهم وهم فى أفخر حلة كأنما هم حرس لقيصر عظيم أو سلطان عظيم الشأن .

و يقول بعض المؤرخين إن أولئك الرهبان كانوا يسكنون قسما خاصا من ذلك البناء الضخم المخصص ليكون مقر ديوان التفتيش ومقر سجونه ، وكان كل راهب دومينيكى يسكن فى الجزء المخصص له، وقد جعل فيه كل أسباب الترف والنعيم المقيم بينما تراه يأمر بتعذيب المئات والألوف فى أسفل ذلك البناء والصرح المشيد . والويل والثبور لمن كان يغضب عليه راهب كهذا كائنا من كان

فقد كان للديوان جنده الخاص به ولهم أعلامهم وكان ذلك الحرس أو الجيش يدعى بجيش (الحرب المقدسة) هذا عدا الجيش السرى وهم عيونه على الشعب .

وعلى العموم لم يكن ذلك الجيش يجمع إلا على سبيل التطوع، والسعيد من قبل فى ذلك الجيش وكان جل من قبل من الامراء والاشراف والله أعلم بسبب انضمامهم فى ذلك وقد كان كل منهم زير نساء فاسق عـِهور يتطلع للنساء الجميلات وللبنات الحسان يزج بآبائهن وأزواجهن فى السجون ليخلو له الجو فاذا ماعفت الواحدة بعدئذ وامتنعت عن إجابة مطالبه الفاسقة زجت هى أيضا فى أعماق السجون وأجبرت قسرا على الفسق واعتدى على عفافها داخل تلك السجون الرهيبة

ولم يكن أحد يجسر أن يشفع لبائس ذى حظ عاثر نزل ضيفا على أولئك الشياطين فانه كان يلحق بمن تشفع له لسوء الظن به ، مهما كان مقامه ومهما كانت منزلته

وكان كل فرد فى أسبانيا ملزما بالاجابة عن كل سؤال خاص بحياته الخاصة مهما كانت وأن يوضح كل شىء بالتفاصيل . فكان يسأل عما يأكل وعما يشرب وكيف ينام ، وماذا يفعل ، ومع من يتكلم ، وأين يقضى سهرته ليلا ، ويسأل عن رؤياه وأحلامه . وكان الاب يجبر على الاجابة عما يسأل عنه خاصا بابنه وابنته وزوجه والأخ عن أخيه والابن عن أبيه . وكان يسأل عما يقرأ وأى كتاب يطالع ومن يعيره الكتب ويعير الكتب هو لمن

وكان يذهب الفرد إلى كرسى الاعتراف وأمامه كاهن يأمره أن يقول كل شىء بصوت مسموع مدعيا أنه ثقيل السمع . فيأخذ الفرد فى الاعتراف بينما يسجل كاتب اختفى وراء ستار كل أقواله، فاذا مالوحظ أنه من غير المرغوب فيهم القى عليه القبض وهو خارج من الكنيسة ويساق الى المحكمة ويعاد استجوابه فى الحال ، ويراجع فى الاجابة اذا ما تلعثم أو أراد أن يرجع عن قول اعترف به فى الكنيسة ، ويخشى المسكين الا أن يكون أمام سحرة أو انبياء ويخاف ويلحقه الدهش فيقع فى حيرة كبرى لانه لم يعلم سر من نقل الى الديوان أخباره

وإذا لم يلق عليه القبض حال خروجه من الكنيسة فان الديوان يبعث اليه فى اليوم التالى برسول خاص فيكلمه بلطف وخبث ويقول له :

« أيها السيد لقد اجتمعت أمس عن طريق الصدفة بآباء الايمان المقدس وجاء ذكرك أثناء الحديث فرغبوا فى رؤيتك لاعمال خاصة هامة تتعلق بك ولهذا فانهم ينتظرون قدومك غدا فى الساعة كذا والرجا أن تحضر فى الوقت المعين »

فاذا ماذهب الى الديوان زج به فى سجون الديوان للتعذيب أولا أو ربما سيق

للموت مباشرة . أما اذا هرب ولم يحضر فالويل لاسرته من تعذيب ولمقتنياته وأملاكه من مصادرة ونهب .

وقلما كان يمكن لأحد الهرب لان جواسيس الديوان كانت رابضة على حدود البلاد كلها .

وكان المطلوب حضوره غالبا يزج به فى السجن وهو لايعلم لماذا سجن ، ويعذب وهو لايدرى لذلك سببا . وأحيانا كان يستجوب امام رجال الديوان وقد تقنعوا بقناع اسود ، و بعد الاستجواب يؤمر به الى السجن والعذاب :

وإذا مادفع به الى السجان فكأنما ألقى بين ذراعى شيطان رجيم له قلب قد من صخر ليس له من احساس . وكان يصحب السجان راهب للاعتراف يمر على السجناء كل يوم. وكل راهب خبيث ماكر حقود سيء النية يتظاهر الواحد منهم بالشفقة على السجين من قبل الرياء والمداجاة والمداهنة ليعرفوا منه كل شيء يرمون اليه من اعترافات على الغير

وكانوا يقسمون بالسيد المسيح أن لايبوحوا بشيء مما يقول ولكنهم كانوا يدعون رجال الديوان يسمعون من وراء ستار رقيق ويقيدون مايقول

وعند المحاكمة كانوا يراجعونه إذا ماقال غير ما قال أولا . وكان ينادى على الشهود وهم من رجال الديوان نفسه

وكانوا يسألون الشخص المقدم للمحاكمة عن كل مايعرفه وأن يقسم على بقايا القديسين ومخلفاتهم انه صادق فيما يقول . وكانت تلك البقايا المقدسة عبارة عن عظام قديمة يعلوها الغبار وخرق ممزقة وأدوات وعصى .

فاذا أقسم قنعوا بسجنه حتى المحاكمة الاخرى والاستجواب الثانى . أما إذا رفض القسم على تلك الطريقة الوثنية فكان يزج به فى أعماق السجون و يذوق فيه كل هوان وهون .

وكان أمر الديوان ينص على أن كل من يأبى القسم على البقايا المقدسة

ويحتقر إيمان الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرومانية ـ وهو تكريم بقايا القديسين والشهداء ـ فيجب أن تصادر أملاكه وكل ماله وتضم إلى أرزاق وأوقاف الكنيسة

وأمكن للديوان بواسطة ذلك القانون المشار اليه آنفا أن يصادر أموالا وممتلكات وعقارات لا تحصى يتصرف رجاله فيها . وتصبح من نصيبهم ونصيب شيعتهم السفاكة . ولا تسل عما فعلوه بالنساء والبنات .

وكان من الصعوبة بمكان على الفارين من وجه الديوان ومن شرور رجاله أن يجد مأمنا فى الارض إلا إذا لجأوا للجبال والمغاور فيموتون جوعا وبردا لانهم إذا ما نزلوا إلى المدن طلبا للقوت عرفهم أعوان التفتيش وساقوهم إلى السجون والموت المحتم .

وقد قيل إن كل سفينة من سفن أسبانيا والبرتقال . كانت تقل عيونا لديوان التفتيش يروحون عليها إلى أمريكا وآسيا وأفريقيا ويرجعون يتعقبون كل فار من الديوان وسجونه، وقد حاول البعض الفرار إلى جزر الفيلبين فاعيدوا كلهم وحل بهم قصاص صارم فى أسبانيا .

وكان كل جاسوس للديوان يحمل إذناً مختوما وموسوما بطابع الديوان المقدس والبابا ، وفيه أنه يجوز لذلك العين أن يسأل ويفتش عن الفارين أو المشتبه فيهم . وكل من سهل سبيل الهرب لأحد قبض عليه وزج به فى السجن وأحرق بالنار وهو على قيد الحياة .

ويقول لوجين بيليتيان فى كتابه (ديوان التفتيش) أنه مر على أسبانيا حين من الدهر تحولت فيه إلى بؤرة جواسيس ووشايات جزويتية هائلة إلى آخر ما ذكره فى ذلك الصدد . مثال ذلك :

أبلغت مسيحية الديوان بأن أحد المتنصرين المسمى خوان مدنيا قد عاد

لاسلامه وكان ذلك فى شهر ديسمبر سنة ١٥٢٨ م (ربيع الثانى سنة ٩٣٦ ﻫ) .
وقالت إنها كانت تسكن مع أسرته سنة ١٥١٠ م (سنة ٩١٦ ﻫ) فى منزل وكان يقيم هو مع ابنيه وابنته وصهره، فلاحظت أنهم لا يأكلون لحم الخنزير ولا يشربون الخمور أبداً . وأنهم يغسلون أقدامهم وأرجلهم حتى الوسط كل يوم سبت واحد .

وكان خوان هذا رجلا هرما جاوز السبعين من عمره ، وكان يسكن شقوبية وصناعته عمل الأوانى النحاسية . فاستدعته محكمة التفتيش ببلد الوليد لاستجوابه فقال : بأنه اعتنق الكثلكة سنة ١٥٠٢ م (سنة ٩٠٨ ﻫ) فى نفس العام الذى نفى فيه المسلمون من تلك الجهات . وقال : بأنه لا يذكر أنه مارس شيئاً من تقاليد المسلمين وعاداتهم . أما عن امتناعه عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر فذلك لانه ، لم يعتد ذلك وقد نصر وهو فى سن متأخرة لما كان فى الخامسة والأربعين ، وعند مثل هذا العمر لا يسهل تعود شىء جديد . وهو يستحم مساء السبت وصباح الأحد لأن حرفته تضطره لذلك . وبين السبب الذى دعا المرأة التى قالت فى حقه ما قالت :أنه حزازات فى نفسها وسوء أخلاقها وقرر بأنها كثيراً ما تكذب وأراد الاستشهاد بعدة متنصرين أمثاله لاثبات ما يقول . فأبت المحكمة أن تستمع منهم شيئاً . ولم يفد الرجل تأكيده بأنه شديد الاخلاص للكثلكة ، ولا فى التجائه إلى المجلس الأعلى وقررت المحكمة إحالته على التعذيب . فاذا أقر (بكفره) كان ذلك سبيلا لاعادة النظر فى أمره. أما إذا أصر فجزاؤه الغرامة . وهددته المحكمة بالتعذيب وأخذ إلى قاعة العذاب وجرد من ثيابه ، ورغم ذلك كله فانه أصر على أقواله ، وقال بأنه مضطر لنقض ما يقول لخوفه ، فجلد وسير به فى موكب حريق إرهابا له وقضى عليه بغرامات وأموال يدفعها .

وقبض على شيخ متنصر وهو فى سن السبعين سنة ١٥٦٠ م (سنة ٩٦٧

— ٩٦٨ هـ) لأنه كان يطالع كتباً عربية فى التوحيد الاسلامى . ولم ينكر الرجل التهمة ولكنه عارض فى اعتباره (كافراً) ولم يفد كلامه وتبريره لأعماله وحكم على الرجل بحرقه وزج به فى السجن حتى يوم التنفيذ . ولما كان الشيخ مريضاً فانه توفى فى السجن . فرؤى أولا حرق تمثال يرمز له ولكنهم عادوا وقضوا باخراج جثته من القبر و إحراقها علنا فى حفلة الحرق . وأن يلحق كفره وإثمه ذكراه فتبقى ملوثة ، وتلحق أسرته فلا يباح لأحد أبنائه أن يتقلد مناصب أو أعمال ذكرنا شيئاً منها فى هذا الكتاب .

ثم صودرت أموال الشيخ . . . . وهو الشىء المهم جداً عند رجال التفتيش وشياطين محكمة مرسية .

وبعد ذلك بثلاث سنين قضت نفس تلك المحكمة بجلد متنصر مائة جلدة و بتسييره فى موكب حريق إرهابا له لطعنه بالعربية فى قانون أصدره الديوان .

وفى السنة الثالثة اتهم شاب متنصر من أريولة بأنه ساحر، وأنه قد عاد إلى الاسلام .

وقلما كانت حفلة حريق تخلو من متهم بالسحر فى تلك العصر سيما فى الجهات الشمالية

وذكر من أبلغوا الديوان بأن ذلك الشاب قد أبرأ مرضى بوسائل غريبة لأنه محالف للشيطان ، فزج به فى السجن واعترف أمام محكمة مرسية بأنه عالج بعض المرضى ولكن بغير سحر أو شعوذة ولكن بواسطة عقاقير أما الحجب والتعاويذ فكان يقصد بها التأثير فى نفس القوم الذين كانوا يعتقدون فيها وما كانوا يعرفون طباً ولا دواء سواها . وقال بأن الشفاء راجع إلى تلك العقاقير ذاتها . ولم يكن مسبباً عن أدعية وحجب . وعلى العموم فانه كان أخذ كتاباً عربياً من متنصر آخر فيه وصف لتعاطى الأدوية كما أن به ذكر

بعض الأدعية والتعاويذ .

وقصد رجال المحكمة إلى اعترافه بأنه محالف للشيطان وأنه ساحر (طبعاً) إذا اعترف بذلك واستعمل معه كل الوسائل لحمله على ذلك حتى طمع فى العفو باعترافه بأنه حليف الشيطان ، ولكنه لا يعبده ولا يؤلهه أبداً وأن كل ذلك مناف للكثلكة . ولذا فهو يأسف على عمله وأنه يرجو من القضاة عفوا وصفحا . ولما نال قضاته ما كانوا يبغون من اعترافه أمروا بجلده مائتى جلدة و بارهابه بواسطة تسييره فى موكب حريق، وحكموا عليه بخمس سنين فى الأشغال الشاقة من أعمال السفن .

وحرقت متنصرة سنة ١٥٧٥ م لاتهامها بالكفر والالحاد وقد أجبرت على الاعتراف بذلك تحت تأثير التعذيب فى سجن الديوان ثم عادت فانكرت اعترافها ولم يفد كل ذلك أمام قسوة قلوب رجال الديوان .

وكل من تقدم للديوان بالدس فى حق غيره لاهلاكه وتعذيبه أمكنه ذلك.

ومن التهم الغريبة أن فلانا أنشد أغانى عربية أو أنه يكثر من الاستحمام كما هو عند المسلمين، أو لدفاعه ولو بكلمة واحدة عن محمد بن عبد الله أو لتكفين ميت بأثواب جديدة أو الامتناع عن أكل لحم الخنزير وشرب النبيذ وصبغ اليد بالخضاب أو لاحراز كتب عربية أو لقيامه الى الصلاة أو صومه أو لوضوئه أو لوجود أوراق باللغة العربية أو قرآن عند المتهم فكان العقاب شديدا من إرهاب وحرق وجلد ومصادرة وتعذيب وتشهير باركاب المتهم حمارا وقد علق بظهره لوحة فيها اسمه وتهمته . ثم يطاف به فى أرجاء المدينة . وقد تفنن رجال الديوان فى أحكامهم . وفى تعذيبهم تفننا عجيبا .

١٣ – سجون التفتيش بأسبانيا

أما سجون ديوان التفتيش بأسبانيا فقد كانت تحت الارض على عمق يشبه عمق الآبار تقريبا .

وكانت رطبة قذرة فاسدة الهواء كالقبور .

وكانت الغرف صغيرة ، فبعضها لسجين واحد ، و بعضهالسجينين فأكثر إلى أربعة يحشرون فى قبر واحد .

قال مؤرخ معاصر فى وصفها ما معناه : انه من المستحيل أن يقدر الفكر على تصور حقيقة تلك السجون : تلك السجون الضيقة المظلمة الرطبة التى كان يقضى فيها أولئك التعساء شهوراً بل وسنين وقد حرموا الهواء النقى والنور والحركة . ومن الغريب أن هذه السجون كانت بدء العذاب وليست هى كل العذاب، مع أنها كانت من أكثر وسائل العذاب فى العالم هولا وشدة وكان السجين محروماً من الثياب الا من خرق بالية تستر جسده قليلا ، فكان البرد يهرىء تلك الأجسام . وكان لا يعطى السجين إلا قطعة صغيرة من الخبز كل يوم فى سجون التفتيش بأسبانيا . وكان الغرض من اجاعة السجين على هذه الصورة ليس للتعذيب بل ليضعف عن كل مقاومة و يقر و يعترف و يبوح بالأسرار التى يعلمها و بكل ما يرادفه .

وكم امتلأت تلك السجون بالضحايا البائسين. وكان فى حملتهم خطيب شهير ، كان يقول بوجوب اتباع ديانة المسيح البسيطة ، أعنى اتباع ماجاء فى الأناجيل فقط . وآخر كان يقول بذلك الرأى و يعلمه للناس . فمات فى سجنه من البرد ، وكان يتوسل للرهبان أن يحرقوه حياً ليتخلص من عذاب السجن فأبوا عليه تلك النعمة الكبرى . ! ?

وعذب عالم آخر بقطع يديه ورجليه وسل لسانه لأنه قال ذات مرة أمام نفر من معارفه وأصدقائه بانه يستحيل عليه أن يصدق أن الله ذاته قد تجسد وصلب .

ودفنت زوجه وهى حية فى حائط الكنيسة جزاء عدم تبليغها الديوان عما سبقها إليه العيون فهى شريكته فى حياته وشريكته فى زندقته وقد علقوا فى رقبتها صليبا ودفنوها حية .

وسجنت امرأة وابنتاها الصبيتان لاتهامهن بالكفر والزندقة لاتباعهن تعاليم الانجيل فحسب ، وزجت الأم فى سجن انفرادى . والابنتان فى سجن آخر ، ولبثن على ذلك زمنا طويلا وهن على أسوأ حال . وقبل تنفيذ حكم الموت فيهن بالحرق توسلت الأم إلى السجان وهى تبكى وتنتحب أن يجمعها بابنيها ، ففعل لشدة ماتوسلت الأم والابنتان له . ثم أعيدت الأم إلى سجنها وكانت النظرة الأخيرة لها من ابنتيها .

وسيقت الأم والابنتان للاقرار الأخير وخشى السجان أن يعترفن بمقابلتهن فاعترف هو للكاهن بما كان منه وجمعه للثلاثة شفقة وعطفاً عليهن ورجاه أن يسامحه ، ولكن سرعان ماقبض عليه وزج به فى أعماق السجون وهو مكبل بالأغلال والقيود وحوكم أمام (آباء الايمان)

فكان الحكم عليه بأن يطاف به وهو عارى الجسد من وسطه إلى مافوق ذلك وقد قيد بالسلاسل ، ويمر على أسواق مدينة اشبيلية وأن يضرب مائتى جلدة على جسده العارى ، و بعد ذلك يسجن عشر سنين .

ولمثل هذه الأسباب كان رجال السجن من أشد الناس قسوة قلوب .

والغريب أن الديوان كان يعين محامين عن المتهمين لأجل الدفاع عنهم . وكانت مرافعة المحامى أكثر ضرراً من نفعها ، إذ كانوا يخشون القبض عليهم واتهامهم بمشاركة الكفرة فى أعمالهم . وكان المحامى ملزماً بقبول كل شهادة ولا

يمكنه الطعن فيها . وكان ملزماً بقبول أى دليل وبرهان ضد من يدافع عنه مهما كان الدليل والبرهان.فالواقع أن الدفاع كان صوريا فقط فلم يكن بالطبع يجدى شيئا إلا إذا كان للمحامى صداقة وله شفاعة عند رجل من رجال الديوان وكان الدفاع يقدم فى مدة تسعة أيام . وبهذه الوسيلة فحسب كان المتهم بعض الأمل فى النجاة ، وإلا فلا مفر من اعدامه مهما كان مقامه وعلو شأنه ، ومهما كانت خدماته لوطنه ، ومهما فعل من أعمال الخير .

وكل من اشتبه فيه حكم عليه بالسجن مالا يقل عن عشر سنين إلى السجن المؤبد . ومن ثبتت تهمته واشترك فى أى عمل اشتراكا فعليا سيم صنوف العذاب ، ثم يؤمر به فيحرق .

وكان للملك وحده الحق فى اصدار العفو عمن يريد من سجناء الديوان . وما كان يعفو إلا مكافأة لرجل من بطانته ، أو نزولا على رغبة خليلة من خليلاته فكان يعفو عن شخص أو عدة أشخاص اجابة لطلب خليلته التى كانت تتخير سيدة مثرية فتطلب من الملك اصدار العفو عنها نظير الاستيلاء على ماعندها من حلى وجواهر وإذا تم لخليلته ما تريد اقتسمت ما جاءها مع رجال المحكمة .

ومن غريب ما كان يحدث عند ابلاغ الحكم وإعلانه أن يحضر السجين أمام هيئة المحكمة ويخاطبه رئيسها قائلا :

« لقد علمنا من مصادر حقيقية يوثق بها انك من مناهضى شرائع امنا الكنيسة المقدسة ، وانك إذ قد اخطأت بذلك وهذا الخطأ هو عائد عليك انت نفسك بذهابك إلى الهلاك الابدى بعد الموت ، ولهذا أمرت المحكمة المقدسة بتعذيبك لردعك عن ذلك الشر ، والضلال وإذا مت أثناء التعذيب فان ذلك الموت يكون ككفارة عن شرورك »

وكانت قاعة التعذيب فى سجون التفتيش باسبانيا تحت الأرض يصل اليها الانسان بسلم ضيق مظلم كثير الانحناءات والزوايا ، وكل جزء منها منفصل عن الجزء التالى بباب من خشب ضخم مصفح بالحديد .

وفى صدر البهو أعدت كراسى وثيرة لأعضاء المحكمة ، وهم الرئيس ووكيله وللكتبة . وكان المعذبون يقفون انتظاراً لصدور الامر .

وكانت أردية رجال المحكمة والديوان سوداء وكذلك كل ماعلى رؤوسهم وكانوا يتقنعون بقناع اسود لا يظهر منه سوى عيونهم . فكأنما هم الشياطين ، ثم كانت توجد آلات التعذيب من مناشير وأثقال وكماشات وحراب ومكاو ومواقد لاحماء الحديد وكى اجساد المعذبين واشياء أخرى لا يزال شىء كثير منها محفوظا فى متاحف العالم باوروبا وأمريكا .

ومن المناظر التى كانت مألوفة فى تلك الابهاء ربط أحد أولئك المساكين بحبال حول جسمه كله وهو ممدد على (دكة) من خشب مرتفعة قليلا ولايزال رجال الديوان يشدون تلك الحبال فتضغط على جسمه العارى حتى تغرز فيه ويسيل الدم ولا يكفيهم هذا بل يحمى رجل من رجال التعذيب ملقطا من حديد بالنار ويضغط به على أنف المعذب كيلا يتنفس ، ويضع رجل ثالث خرقة مبللة بالماء على فم المسكين ، وهو مضطرللتنفس من الفم لسد أنفه ، فلا يزال يتنفس بقوة والخرقة تدفع إلى داخل حلقه وبذا يسود وجهه وتجحظ عيناه وتظهر عليه علامات الاختناق ويتدفق الدم من أنفه وعينيه وأذنيه فيشير كاهن لأحد رجاله ، فيدخل الرجل أصابعه فى فم الرجل ويجذب الخرقة بقوة إلى الخارج فتخرج وقد تلوثت بالدماء . ثم يخفف عنه العذاب قليلا ويعاد استجوابه مرة أخرى واجباره على الاعتراف ، فاذا لم يتكلم ويقول مايوافقهم

اعادوا عليه العـذاب مرة أخرى أو دفعوا به إلى السجن فالتعذيب حتى يقضى نحبه .

ومن بعض فظـائع الديوان فى التعذيب : الـكى بالحديد المحمى والحرق بالزيت أو الزفت المحمى وتمزيق أعضاء الجسم بواسطة البكَر والحبال كما سبق أن ذكرنا ذلك فى سجون البرتقال ، وسمل العيون وسحب الاظافرمن الأصابع وسل الألسنة وسحب ثدى المرأة من صدرها بواسطة (جذابات) خاصة بذلك

أما الذى كانت المحكمة تحرص على معرفته فهو :

١ ـ إذا كان الواقف امامها مسلما فعليه أن يخبرها عن بقية من يعرف من المسلمين وعن أماكن وجودهم وأماكن عباداتهم الخفية وأماكن صلاتهم .

٢ ـ إذا كان الواقف أمامها مسيحيا وليس بكاثوليكى فعليه أن يخبرها عن اخوانه فى المذهب والعقيدة ، وعن اماكن وجودهم وأماكن صلاتهم ان كان ذلك فى أسبانيا كلها

٣ ـ إذا كان من المفكرين الأحرار فعليـه أن يخبر المحكمة عن آله وأصدقائه ، وعن كل انسان يظن أنه على شاكلته فى الرأى ، وعن أماكن وجودهم ، وعن الـكتب التى يطالعونها وعن مصـادرها ، وعمن باعها لهم وعن أماكن اجتماعهم وعن محافلهم

٤ ـ إذا كان يهوديا فعليـه أن يخبر المحكمة عن اخوانه اليهود وعن أماكن وجودهم ، وإذا كان واحد منهم يزمع الهرب من أسبانيا سرا ، وعن أماكن عباداتهم وعما يفكرون فيه خاصاً بالـكنيسة والديوان المقدس .

٥ ـ إذا كان من متنصرة اليهود أو المسلمين الجديدين فى كثلكتهم فعليه أن يخبر المحكمة عما يفكر به خاصا بدينه الجديد . وهل تنصر عن عقيدة أ د

لايزال يزاول طقوسه الدينية فى بيته سرا ؟ و يخبر عن أهله وعن أماكن وجودهم وعن أصدقائه الذين يتكلم معهم وعن أفكارهم سواء كانت دينية أو أفكارا حرة ؟ .

فاذا لم يقرر المتهم الواقف أمام محكمة التفتيش ما تريده منه دفع به إلى الجلادين ، فعذبوه ماشاءوا أن يعذب . و إذا اعترف وذكر أسماء أشخاص قبض على أصحابها وسيقوا للسجون فى مدة لاتتجاوز الاربع والعشرين ساعة .

والغريب أن كثيرين من المعذبين ما كانوا ليعترفوا بشىء رغم كل صنوف العذاب الذى يلاقونه ، حتى إن رجلا من رجال الديوان كتب رسالة يصف فيها مارآه من صلابة عودهم ، وانهم كانوا يلاقون الموت و يفضلون لقاءه عن أن يعترفوا بشىء أو يذكروا اسم أحد للديوان

واشتهر من رؤساء ذلك الديوان الذين كانوا يصدرون الأحكام فى سبع مقاطعات باسبانيا ، و إليك أسماء الرؤساء .

١ — توركويمادا

٢ — ديزا

٣ — سيزنيروس

٤ — فلويرنسيو

٥ — ما نريكى

٦ — تاليو

٧ — لوايبزا

و يقال : ان هؤلاء السبعة أمروا باحراق عدة آلاف من الناس وهم أحياء. وأفظعهم هو أولهم ، فقد قتل وحرق آلافا عديدة من بنى الانسان .

و إذا ماحكم بالموت أو بالحرق على فرد أو أكثر طيف بهم قبل يوم التنفيذ

بيومين فى المدينة وأسواقها وهم مكبلون بالأغلال والأصفاد الحديدية مطوقين بالسلاسل الغلاظ تحيط بهم فرقة من الجند تسلحوا بالسيوف والقضبان الحديدية على هيئة النبابيت . وفى خاتمة المطاف يحشر المحكوم عليهم فى سجن واحد استعدادا ليوم التنفيذ .

وتأتى فرقة من جنود الديوان فى منتصف ليل التنفيذ وعلى رأس الفرقة عرفاؤهم وقوادهم وجماعة القساوسة . فيفتح السجانون الأبواب ويخرجون أولئك البائسين ، وعندها يبلغهم نذير الشؤم المكلف هؤلاء به من قبل المحكمة وبأن ساعة العقاب قريبة لا مناص منها . وكان المساكين يقابلون ذلك الخبر بثبات ورباطة جأش تدهش رجال الديوان الذين يكررون النصح لهم بالاقرار والاعتراف وهم يحمدون الله على قربهم من الراحة الأبدية التى هى خير من عذاب السجون الذى يلاقونه .

وبعد الانتهاء من طلب الاعتراف وطلب الغفران تكم أفواه أولئك المساكين ويلبسون لباس الاعدام الخاص بذلك ، وهو لمن حكم عليهم بالموت حرقا قميص أصفر غمس فى شحم أو زيت وقطران وقد رسم عليه صور شياطين وأفاعى وتنين ، ويوضع على رؤوسهم قبعات من ورق عليها مثل تلك الرسوم .

وكان السجناء الآخرون يصحبون المحكوم عليهم وقد ارتدوا لباسا آخر . وسبب تلك الصحبة هو إرهابهم وتهديدهم بمثل تلك المواقف الرهيبة والمناظر المؤلمة إذا هم لم يطيعوا الديوان ولم يعترفوا للمحكمة

وإذا ما انبثق الفجر حضر إلى السجن كل رجال الديوان ليأخذ كل واحد منهم مكانه ويقوم بما عهد إليه من عمله عند تنفيذ الحكم .

وعند الساعة السادسة صباحا يخرج السجناء من السجن إلى الميدان الذى أمامه ، فيرون سماطا قد مد ومائدة كبيرة عليها ما لذ وطاب من شهى

الطعام والخمور المعتقة ، فيؤمرون بالجلوس عليها وتناول آخر فطور لهم فى هذه الحياة الدنيا .

وسبب تقديم ذلك الطعام والشراب أن يخدع رجال الديوان الشعب الجاهل المحتشد بأنهم يعاملون سجناءهم وغرماءهم معاملة طيبة وأن هذا مثال مما كانوا يعطون فى سجونهم ، مع ماعلمنا من سوء معاملة وتغذية مهلكة . وأى انسان يكون على مثل حال أولئك التعساء وتكون عنده شهوة للطعام ، وهو على مقربة من الموت حرقا ! ؟

لقد كانت الموائد الممدودة لضيوف الحريق نوعا من أنواع التعذيب النفسى

وكان إلى جانب مائدة الطعام مائدة عليها أطواق حديدية توضع فى الرقاب وأخشاب توضع فى الفم على شاكلة لجام الجياد .

فاذا مارفعت راية الديوان اشارة للبدء تقدم جلاد من الضحايا وقال لهم :

يا ضحايا ديواننا المقدس إن هذه الأطواق الحديدية لرقابكم وهذه الكمامات لافواهكم ، فتقدموا و يلزم كل منكم أن يتقدم فيضع طوقه فى عنقه وخشبته فى فمه ، فيلزمون الصمت الأبدى .

أما أردية الرهبان فملابس حمراء وقلائد ذهبية ومواكب فخمة يسير فيها كل الرهبان والكهنة وخدم الكنيسة وقد ارتدوا أفخر الحلل والحلى الثمين .

و يتقدم الملك ورجال البلاط وحكومته ورجال القضاء والقواد ، وتقف ألوف من الخلق ليروا حرق الكفار ، وقد هيىء الحطب وأعد كل شىء لاصعاد المساكين على المحارق .

١٤ — موكب الحريق

يخرج الموكب من ساحة السجن إلى ساحة الحريق . ويتقدم الجمع تلاميذ المدارس الاسبانية في ثياب خاصة ، و برفقة معلميهم من رجال الدين ، و يصحبهم ألف رجل قد حملوا ألف راية من رايات الكنيسة ، و إلى جانب كل راية كاهن يترنم بترنيمة محزنة . ثم جماعة تحمل صور القديسين وأعلام الجماعات الدينية ، ثم السجناء المعذبون وفى رقابهم أغلال ، و إحضار التلاميذ ذلك المشهد الرهيب هو لتخويفهم واجبارهم على طاعة الديوان . وكانوا يلزمونهم بحمل مشاعل مطفأة لتذكرهم بأنها سوف توقد اذا هم صمموا على عصيانهم . و يسير وراء هؤلاء من أطاعوا الديوان ونبذوا الكفر والالحاد وعفا عنهم الديوان ولكنه جعلهم تحت المراقبة .

ومن وراء هؤلاء يسير من حكم عليهم بالحرق وكانوا يمشون بخطى ثابتة مرفوعى الرأس، على وجوههم سيما العظمة والسكينة والازدراء بالحياة .وقد كمت أفواههم كما أشرنا إلى ذلك آنفا كيلا يتكلموا مع أحد من الشعب أو يقولوا شيئا وقد كبلت أيديهم بالسلاسل وسار كل واحد يحرسه الجند والرهبان . و يأتى بعد ذلك صفان طويلان من جند اسبانيا ومن خلفهم الحكام والقضاة ورجال بلاط الملك ونائب الملك أو الملك نفسه ، ثم أمراء الأسرة المالكة وأبناء الاشراف والكل فى أفخر حلة وأجمل زينة كما لو كانوا ذاهبين إلى وليمة عرس أو حفلة تتويج. ثم رجال الديوان والراهبات ، وكل رجال الدين والكنائس يحيطون بامراء الأسرة المالكة والملك ، وهو قلما كان يتخلف عن حضور تلك المشاهد .

ثم ينقطع سير المحتفلين قليلا و يظهر بعدئذ وكيل المملكة العام الذى صادق على حكم الحرق وهو يسير فى ابهة وعظمة، وقد أفرد له هذا المكان على

تلك الصورة فى الحفلة كاكرام له اختصه به الديوان ، ثم يظهر علم الديوان وكان من حرير احمر كبير جداً يرفع على صليب وقد ذهبت حواشيه وجوانبه وأطرافه ويتقدم العلم رئيس الديوان وهو يسير مختالا فخورا لأنه كان يعتقد انه ظل الله فى أرضه وكان الملك نفسه ومملكته اسبانيا تخشاه فهى طوع بنانه . فبين شفتيه الموت أو الحياة ـ يحيط به الجند وقد شهروا حرابهم واستلوا سيوفهم .

ويسير خلف هؤلاء الشعب جماعات جماعات وقد انخلعت افئدة أفراده خوفا ورعبا ويطوف الموكب كل طرق المدنية الهامة . وكلما وصل إلى ميدان يقف وتقام صلاة قصيرة ، ثم يتابع السير ، حتى يصل الى أكبر ميدان بالمدينة المسمى (بميدان السوق) أو (بلاسا دومر كادو) حيث أعدت كراسى مذهبة ودكة مرتفعة لجلوس الملك ورجال البلاط والحكام والأمراء وكبار رجال الديوان . وأمام ذلك وفى جوانب الميدان رفعت أعلام عديدة .

ويقف صفان من المحكوم عليهم حرقا أمام مكان جلوس الملك وهم فى انتظار الحرق . وقد أعد الحطب اكواما مكدسة .

ويأخذ بعض الكهنة يعظونهم عظات ويطمئنونهم على انهم لن ينسوهم فى صلواتهم وانهم لا يحرمونهم من محبتهم الأخوية ???? والمساكين وقوف لا يتكلمون وقد كمت أفواههم .

وفى بعض الأحيان كان رجال الديوان يضطرون أقارب المحكوم عليها إلى اضرام النار بأيديهم واعدادها لحرق أقاربهم .

ويظل الحال على ذلك حتى يصل رئيس الديوان فترفع رايته فى وسط الميدان ويتقدم إلى الملك فيقف له اجلالا هو ومن فى حضرته من أساقفة يناولونه الصليب فيخاطب رئيس الديوان الملك قائلا :

يا صاحب الجلالة

بينا تحمل فى يدك هذا الصليب المقدس ترانا ننتظر من جلالتكم أن تقسموا على أن تعضدوا الديوان المقدس وأن تثبتوا سلطتنا فى هذه البلاد .

فيقسم يمينا يمليها عليه الأساقفة أمامه . ثم يستمر الرئيس قائلا :

وان تقسم ياصاحب الجلالة على أن كل ما يعمله ديوان التفتيش وكل ما يجريه من الأحكام انما هو مطابق لتعاليم الكنيسة الرسولية الرومانية وانه مطابق أيضا لشرائع بلادكم التى ترمى إلى تطهير هذه البلاد من الكفرة والزنادقة وأصحاب التعاليم الشيطانية

فيقسم الملك بما يملى عليه من الايمان المغلظة

فيستمر الرئيس فى خطابه قائلا :

ليبارك الله جلالتكم وليمكنك من الحكم طويلا فى الأرض مادمت مسندا لشرائع الديوان المقدس وشرائع الكنيسة الرسولية الرومانية .

و بعدئذ يجلس الملك فى كرسيه و يتقدم كاتب الديوان إلى منتصف الميدان ـ وكانوا يتخيرونه رجلا كبير الهامة ضخم الجثة جهورى الصوت ـ فيقف على دكة مرتفعة و يأخذ فى تلاوة صورة الحكم من ورقة فى يده، والناس فى صمت كأن على رؤسهم الطير، و يذكر فيها من حضروا الحفلة وهم على ذمة الحريق ولايزال الديوان يشك فى صدق مسيحيتهم إذ كانوا من بقايا المسلمين بالاندلس أو من متنصرة اليهود مثلا ، وأن الديوان اعتقلهم للتأكد من أمرهم فاذا تأكد من مروقهم عن الكثلكة أمر باحراقهم . و يقول :انه لما تأكدت المحكمة من استحالة إيمان هؤلاء فانها قد حكمت عليهم بالموت حرقا

و بعد الانتهاء من تلاوة الحكم يتقدم رئيس الديوان و يمنح الغفران لاولئك المساكين ، و يأمر بترتيل مزمور مطلعه : ارحمنى يا ربي كما شاءت رحمتك

فيرتل الكهنة والناس ذلك المزمور بصوت عال

ومكان الحرق أو الشنق عبارة عن أربعة أعمدة وأحيانا عمود واحد أو جزع شجرة مرتفع ، وحوله أكوام الحطب من كل جهة فى علو ثلاثة أمتار تقريبا من الارض ويكون على هيئة مصطبة مربعة فى أعلاه ، والعمود بارز منها . فكانوا يوقفون المحكوم عليه إلى هذا العمود ويربطون حبلا فى رقبته ويربط الحبل إلى العمود . ويلف الجلاد الحبل على الرقبة عدة مرات وفى كل مرة يشتد فى ضغطه حتى يختنق المسكين ، وأحيانا كانت الحبال تشد إلى وسطه فقط إذا ماتوسل المسكين اليهم أن لايخنقوه بل تترك النيران تأكله وهو حى

ثم يصعد كاهن وفى يده صليب من العاج يعرضه على المسكين ليقبله قبل حرقه ، وذلك قبل إضرام النار بقليل

وكل من مات فى سجون الديوان تحرق جثته أيضا كيلا يعرف له قبر

وإذا ما انتهى الكاهن من عمله أضرمت النيران دفعة واحدة فى الحطب بينما يترنم الكهنة ويصلون ويبحث جواسيسهم فى وجوه الشعب ويستمعون لما يقال. فمن تأفف أو أظهر عطفا على المحروقين أو أبدى أى إشارة اشمئزاز ألقى القبض عليه فى الحال ، وكثيرا ما كان يضم إليهم فى التو والساعة .

كل هذا يحدث والحكومة ملزمة باطاعة رجال الديوان . وكانت تبنى له السجون وتقوم على حراستها من الخارج وتقدم الحطب وقودا لنيران المحارق وتبعث بجندها للقبض على من تعذر على الديوان القبض عليه . وإذا أبى حاكم إطاعة أوامر الديوان صدر أمر بحرمانه من الكنيسة فيسقط ماله من حرمة مهما كان شأنه وإذا تم لهم ذلك قبضوا عليه هو وأسرته غالبا وزجوا بهم فى أعماق السجون وعذبوهم العذاب الاليم حتى الموت والحرق

وإذا ماتشفع انسان بالبابا من أجل إنسان بعث البابا باسمه الى الديوان

فيكون ذلك عند رجال الديوان المقدس جرما جديدا ، وجريمة عظيمة ، اذ يزدادون غيظا على المسكين الذى تشفع فيه « الاب الاقدس » . والذى يزيدك دهشة :

أن كل هذه الاحكام الظالمة الفظيعة كانت تصدر باسم « الاب الاقدس » أى البابا نفسه .

وظل ذلك الديوان قائما فى أسبانيا و بلاد البرتقال زهاء اربعمائة سنة بدون انقطاع

وقد خضدت شوكته أوائل القرن التاسع عشر نظرا لانتشار الآراء الحرة فى أوربا عقب الثورة الفرنسية والامريكية .

٥ — تقرير عن الديوان بمدريد

وإليك ما كتبه الكولونيل ليمونسكى أحد ضباط الحملة الفرنسية فى أسبانيا قال :

كنت فى سنة (١٨٠٩ م توافق سنة ١٢٢٤ هـ) ملحقاً بالجيش الفرنسى الذى كان يقاتل فى أسبانيا ، وكنت مع فرقتى من الجيش الذى احتل مدريد العاصمة وكان الأمبراطور نابليون أصدر مرسوما سنة ١٨٠٨ م (سنة ١٢٢٣ هـ) بالغاء دواوين التفتيش فى المملكة الأسبانية ، ولكن هذا الامر أهمل ولم يعمل به بسبب الحالة الحربية والاضطرابات السياسية التى كانت سائدة أيامئذ . وعلى ذلك صمم رهبان الجزويت أصحاب ذلك الديوان على أن يقتلوا أو يعذبوا كل فرنسى يقع فى أيديهم انتقاما من ذلك القرار ، وذلك لالقاء الرعب فى قلوب الفرنسيين بطريقة تضطرهم إلى إخلاء البلاد ليخلو لهم الجو .

وبينما أنا أسير فى إحدى الليالى بين الساعة العاشرة والحادية عشرة فى شارع من شوارع مدريد لا يمر فيه الناس كثيرا إذا باثنين مسلحين قد هجما على يريدان قتلى ، فدافعت عن نفسى دفاعا كبيرا ، ولم ينجنى منهم إلا سرية فرنسية قادمة كانت تقوم بطوافها فى المدينة ، وكانت السرية من الخيالة تطوف البلد طول الليل بالمصابيح لحفظ النظام . ولما شاهد القاتلان ذلك لاذا بالهرب ، وتبين لنا أن هذين الرجلين من جنود ديوان التفتيش عرفنا هذا من ملابسهما . فأسرعت إلى الماريشال سولت حاكم مدريد العسكرى أيامئذ وأطلعته على ما حدث فغضب الماريشال ، وقال أنا لا أشك بأن من قتل ويقتل من الجنود كل ليلة إنما يكون بأيدى أولئك الاشرار ، ولا بد لنا من معاقبتهم وتنفيذ قرار الامبراطور

والآن لك أن تأخذ معك ألف جندى وأربعة مدافع وتهاجم دير ديوان التفتيش وتقبض على أولئك الرهبان الأبالسة . هذا إذا رأيت أن ما ينسب إليهم من الفظائع حقيق . ولنقتص منهم بمحاكمتهم أمام مجلس عسكرى

وعند الساعة الرابعة صباحا ركبت على رأس تلك الحملة وقصدنا دير ديوان التفتنش ، وكان يبعد خمسة أميال عن مدينةمدريد . فلم يدر الرهبان الا والجنود تحيط بديرهم والمدافع منصوبة عليه . وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بالقلاع ، وله أسوار عالية جدا تحرسها فرقة من جند اليسوعيين . فتقدمت من باب الدير وخاطبت الحارس الذى كان واقفاً على السور فوق الباب وأمرته باسم الامبراطور نابليون أن يفتح الباب . وظهر لى أن هذا الحارس قد التفت إلى الداخل وأخذ يكلم أشخاصا لا نراهم، ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص، ثم انهال علينا الرصاص من كل جهة ، فقتل بعض رجالى وجرح البعض، عندئذ أمرت الجنود أن يهاجموا الدير و يقتحموه عنوة لأن اطلاق الرصاص من الجزويت كان كعلامة رفض وانهم لايفتحون الباب إلا بالقوة . وانهال الوصاص على الباب فأخذنا باطلاق المدافع على أسوار الدير وعلى الباب وجاء الجنود بأخشاب سميكة اتخذوها كمتاريس لهم تقيهم رصاص جنود التفتيش الذى انهمر كالمطر الغزير . و بعد أن دامت المعركة نصف ساعة فتحت ثغرة واسعة فى الحائط دخل منها الجيش وامتلك الدير .وكنت أنا وبعض الضباط الآخرين أول الداخلين

فاسرع رهبان اليسوعيين للقائنا مرحبين بنا بوجوه باشة ، مستفهمين عن سبب قدومنا على هذا الحال كأن لم يكن من شيء بيننا ، ولم تكن موقعة ، ولم يكن قتال بين جنودنا وجنودهم ثم انهالوا على جنودهم تعنيفا وتأنيبا لمقاومتهم

لنا . وقالوا لهم : ان الفرنسيين أصدقاء لنا ، فمرحبا بهم .

فما أغرب ذلك النفاق والخبث الماكر ! !

ولكن لم تنطل حيلتهم على ، بل أمرت الجنود بالقبض على أولئك القساوسة المنافقين وعلى جنودهم كلهم ، لتقديمهم لمجلس عسكرى .

وأخذنا نبحث عن قاعات العذاب المشهورة ، حيث كان بها من صنوف التعذيب ما تقشعر من ذكره الابدان ، وتتألم منه النفوس الانسانية الرحيمة .

وطفنا بغرف الدير فرأينا ما بها من أثاث فاخر ثمين . ورياش وكراسى هزازة وسجاجيد فارسية فاخرة وصور ثمينة نادرة ، ومكاتب كبيرة وقد صنعت أرض تلك الغرف من خشب المغنى المصقول المدهون بالشمع بكيفية عجيبة . وكان شذا العطور يعبق فى أرجاء تلك الغرف . فهى أشبه بأبهاء القصور الفخمة الكبيرة التى لا تكون الا لملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو

وعلمنا أن تلك الروائح العطرية كانت تنبعث من شمع موقد دائما أمام صور رجال تلك العصابة اليسوعية . و يظهر أن الشمع قد خلط به ماء الورد .

وكاد يذهب مجهودنا سدى فى محاولة العثور على قاعات التعذيب ، بعد أن فحصنا كل غرف الدير وممراته وأقبيته . ولم نجد شيئاً يدل عليها . فعزمنا على الخروج من الدير ، وكدنا نقنع بتقرير أولئك اليسوعين أمام المجلس العسكرى وكانوا يقسمون و يؤكدون أن وجود ما يشاع عنهم من أمور فى ديرهم المسيحى ليس إلا تهمة كاذبة باطلة ، وأنها حديث خرافة . ولكنهم يحتملون ذلك فى سبيل الله . وصار زعيمهم يؤكد لنا ما يقول بصوت خافت وهو خاشع الرأس وعيناه مغرورقتان بالدمع الهتون . من دموع التماسيح . وكادوا يخدعوننا . فاعطيت الجنود الأوامر بالاستعداد لمغادرة الدير ، فاستمهلنى الليفتنانت

دى ليل ، وقال : أتسمح لى يا حضرة الكولونيل أن أقول لك إن مهمتنا لم تنته حتى الآن .

فقلت له : ألم نفتش كل الدير ولم نعثر على شيء ، ففيم ترغب ؟ !

قال : أجل قد فتشنا ، ولكننى أرغب فى فحص أرض هذه الغرف ، وأدقق فى فحصها وامتحانها . فان قلبى يحدثنى بأن السر هو فى الأرض . وأن هذه الغرف الفخمة تستر تحتها ما جئنا نبحث عنه . وعندها نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرات ذات معنى .

وأذنت للضابط بالبحث .

فأمر الجنود عندئذ برفع الأبسطة والسجاجيد عن الأرض ، فرفعت . ثم أمرهم بأن يصبوا ماء بكثرة فى أرض كل غرفة على حدة . ففعلوا . وكنا نرقب الماء فاذا بالأرض تبتلعه فى إحدى الغرف ، وإذا به يتسرب إلى أسفل . فصفق الضابط دى ليل من شدة الفرح .

وقال : ها هو ذا الباب . انظروا فنظرنا . وإذا بالباب قد ظهر ، وهو قطع من أرض الغرفة يفتح بطريقة شيطانية ، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس .

وأخذ الجند فى تكسير ذلك الباب العجيب بقحوف بنادقهم ، وأحاطت فرقة من الجند بعصابة اليسوعيين ، وقد اصفرت وجوههم وعلتها غبرة . وخارت قواهم من الفزع والهلع .

وفتح الباب ، فظهرت لنا سلم تؤدى إلى باطن الأرض . فاسرعت وأخذت شمعة كبيرة أطول من متر ارتفاعا أنيرت أمام صورة أحد أولئك الرؤساء لمحاكم التفتيش ورؤساء الديوان المقدس

ولما هممت بالنزول وضع أحد اليسوعيين يده على كتفى لطفاً ، وقال لى :

أرجوك يا بني أن لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال . لأنها شمعة مقدسة ! ! !

فقلت له : هذا حق يا هذا . فانه لا يليق بيدى أن تتنجس بلمس شمعتكم الملوثة بدم الابرياء . وسنرى الآن من هو النجس منا . ومن منا القاتل السفاك؟!

وهبطت على السلم يتبعني بقية الضباط والجند شاهرى سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج . فاذا بنا فى غرفة كبيرة مربعة ، كانت تسمى عنـدهم بقاعة المحـكمة ، فى وسطها عمود من الرخام به حلقة حديدية ضخمة ربطت بها سلاسل كانوا يقيدون فيها فرائسهم التى تكون رهن المحاكمة .

وأمام ذلك العمود (عرش الدينونة) كما كانوا يسمونه هم . وكان عبـارة عن (دكة) عالية يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش ، و إلى جانبى ذلك المقعد المرتفع أماكن لجلوس جماعة القضاة . وكانت أوطأ بقليل من المقعد .

ثم توجهنا لغرف آلات التعذيب وتمزيق الاجسام البشرية . وقد امتدت كل تلك الغرف إلى مسافات كبيرة . وكانت كلها تحت الارض . وقد رأينا بها ما يستفز النفس و يدعوها أن تتقزز ما حييت .

رأينا غرفا صغيرة فى حجم جسم الانسان ، بعضها عمودى ، و بعضها أفقى فيبقى سجين العمودية به واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يقضى عليه ، و يبقى سجين الافقية ممداً حتى يموت . وتبقى الجثة فى السجن الضيق حتى تبلى و يسقط اللحم عن العظم . ولتصريف الرائحة الـكريهة المنبعثة من الأجداث البـالية فتحت فتحة (كوة) صغيرة إلى الخارج .

وقد عثرنا على عدة هيا كل بشرية لاتزال فى أغلالها سجينة مقيدة . أما السجناء فرجال ونساء تتفاوت أعمارهم بين السبعين والرابعة عشر سنة .

وقد تيسر لنا فكاك بعض السجناء الأحياء من أغلالهم وهم على آخر رمق

من الحياة . وقد جن بعضهم خوفا وهلعا ولكثرة ما لاقوا من عذاب .

وكان السجناء عرايا زيادة فى النكاية بهم فى التعذيب . وقد اضطر الجنود أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها النساء السجينات .

وأخذ السجناء إلى النور تدريجيا لئلا تؤثر مفاجأة النور على أبصارهم .

وقد أخذ السجناء يبكون فرحا وأخذوا يقبلون أيدى الجنود وأرجلهم لأنهم أنقذوهم . وأعادوهم إلى الحياة بعد الموت المحقق والعذاب الاليم .

ولما انتهينا من ذلك توجهنا إلى غرف آلات التعذيب . فرأينا هناك ما تقشعر لهوله الابدان .

فقد عثرنا على آلات لتكسير العظام وسحق الجسم . وكان يبدأ بسحق عظام الارجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين ، كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتى الآلة على كل الجسد فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة . وعثرنا على صندوق فى حجم رأس الانسان تماما ، توضع فيه الرأس المعذبة بعد أن تربط أيدى وأرجل وجسم صاحبها بالسلاسل ، فلا يقوى بعد ذلك على الحراك وتقطر على رأسه من ثقب فى أعلى الصندوق نقط الماء البارد ، فتقع على رأسه بانتظام فى كل دقيقة نقطة . وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب قبل الاعتراف . و يبقى المعذب على حاله هذا حتى يموت .

وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة وهى عبارة عن تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة الصورة مصنوعة وهى على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة . وكانوا يطرحون المعذب الشاب فوق هذه الصورة و يطبقون عليهما باب التابوت بسكاكينه وخناجره بعنف فتمزق السكاكين جسم الشاب وتقطعه إربا إربا .

كما إننا عثرنا على عدة آلات لسل اللسان ، ولتمزيق أثداء النساء وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة ، ومجالد من الحديد الشائك لجلد المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظام .

* * *

وصل خبر الهجوم على دير ديوان التفتيش إلى مجريط . فهب ألوف من الناس ليروا ماحدث وخيل الينا أنه يوم القيامة

ولما شاهد الناس صنوف التعذيب وآلاته الجهنمية ورأوها رأى العين جن جنونهم ، واشتعلوا بنيران الغيظ . كانوا كمن مسه الجن فأمسكوا برئيس أولئك اليسوعيين ووضعوه فى آلة تكسير العظام فلم تشفق عليه ودقت عظامه دقا وسحقتها سحقاً ، وأمسكوا كاتم سره وزفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين تمزيقا .

ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بباقى طغمة اليسوعيين وبقية الرهبان مافعلوه أولا .

ولم يمضى نصف ساعة حتى قضى الشعب على ثلاثة عشر راهبا من تلك العصابة الآثمة .

ثم أخذ الشعب ينهب مابالدير وقد عثرنا على أسماء ألوف من الأغنياء فى سجلات الديوان السرية ، وهم السراة الذين قضوا عليهم لابتزاز أموالهم . وكانوا يضطرونهم إلى كتابة إقرارات تحول بموجبها أموالهم لليسوعيين . فاذا ماتم لهم ذلك عذبوهم وقتلوهم بآلاتهم

ويمكننى أن أقول بأن ذلك اليوم كان أعظم يوم تاريخى شهده العالم بعد يوم الباستيل وقد عانق الآباء أبناءهم والأبناء آباءهم بعد مامر بهم من أيام

العذاب وقبلت النساء بناتهن اللواتى قضى على عفافهن فى تلك المطابق اغتصابا وانهال التقبيل على أيدى وأقدام الجند ، خصوصا من النساء اللواتى انتهكت طغمة الديوان المنجس عفافهن واغتصبوهن فى تلك المطابق اغتصابا

والحق أقول أن القلم واللسان ليعجزان عن وصف مارأيناه فى ذلك الدير من الفظاعة والبربرية التى لاتخطر على عقل بشر سوى الشياطين الذين قد يعجزون هم أيضا عن الاتيان بمثلى هذه الأعمال .

(انتهى)

* * *

ولما عاد الديوان المقدس إلى الحياة مرة أخرى سنة ١٢٢٩ هـ — ١٨١٤ م بأسبانيا كما لوكان يستفيق الانسان للمرة الأخيرة قبل أن تزهق أنفاسه

وقد وصف مؤرخ أسبانى ماشاهده بنفسه عندما أريد تنفيذ حكم الديوان بحرق ثلاث نساء فى صباح يوم من شهر يوليو من السنة المذكورة (شهر شعبان سنة ١٢٢٩ هـ) وكانت تهمتهن التجسس لجماعة البنائين الأحرار (الماسون) قال المؤرخ :

تجمع الناس أمام السجن وهم يتغنون بأناشيد وأغان شجية ، وكانوا من حثالة القوم ورجال الديوان .

ثم أخرجت النسوة وكل واحدة قد اركبت حمارا وظهرها الى رأسه ، وقد تعرين إلى أوساطهن . وقد طليت أبدانهن بالعسل ونثر فوقه ريش . فأخذ الناس يصيحون : هاهن هؤلاء الكافرات الملحدات ، وصوبوا عليهن الحجارة يرشقونهن بها ، ونالهن ضرب كثير وأذى وقذف بالاوحال ، والأوساخ والبصق على وجوههن وأجسادهن .

وسار الموكب فى الطرقات والكنائس تصلصل أجراسها حتى أوقفن أمام كنيسة منهن وتليت عليهن صورة الحكم ، تلاه أحد رجال الديوان ضخم الجثة جهوى الصوت واستمع الناس إلى مايقول ، ثم سار الموكب مرة أخرى وسال الدم من أجساد النسوة من تحت الريش حتى جىء بهن إلى ساحة الحريق فأحرقت أجسادهن ، وهن لايعين لكثرة ماناهن من الأذى والقساوسة يحمسون الشعب الجاهل .

وكان يحدث أن يسلم النسوة ليلة التنفيذ لرجال من الديوان ليفسقوا بهن طول الليل وينفذ الاحراق فى الصباح

٧ — رثاء الاندلس

لأبى البقاء صالح بن شريف الرُّنْدى

يتفجع فيها على الاندلس ، الفردوس الاسلامى المفقود ، وما أصابها وأصاب المسلمين فيها من النكبات الفواجع ، وهو صادق الوصف وفى كل شطرة إشارة ومغزى قال :

لكل شىء إذا ماتم نقصان ... فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسان
هى الأمور كما شاهدتها دول ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يُمزّق الدهرُ حتما كلّ سابغة ... إذا نبتْ مَشْرَفيّات وخُرْصَان
ويَنتضِى كلّ سيف للفناء ولو ... كان ابنَ ذى يَزَن والغِمْدُ غُمدان
أينَ الملوك ذووُ التيجان من يَمنٍ ... وأين منهم أكاليلٌ وتيجان ؟
وأين ماشاده شدّاد فى أرَم ... وأين ماساسه فى الفرس ساسان ؟
وأين ماحازه قارونُ من ذهب ... وأين عادٌ وشدّاد وقَحْطَان ؟
أتي على الكل أمرٌ لا مَرَدّ له ... حتى قَضَوا فكأن القومَ ما كانوا
وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ ... كما حكى عن خيال الطَّيْفِ وَسْنَانُ

* * *

دارَ الزمانُ على دارَا وقاتله ... وأمَّ كِسرَى فما آوَاه أيْوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب   يوماً ولا ملك **الدنيا سليمان**

* * *

فجائع الدهر أنواع منوعة   وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها   وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لاعزاء له   هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين فى الاسلام فارتزأت   حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية : ماشأن مرسية   وأين شاطبة أم أين جيان ؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان ؟
وأين حمص وما تحويه من نزه   ونهرها العذب فياض وملآن

* * *

قواعد كن أركان البلاد فما   عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية   قد أقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما   فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة   حتى المنابر ترثى وهى عيدان

* * *

يا غافلا وله فى الدهر موعظة   إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحاً يلهيه موطنه   أبعد حمص تغر المرء أوطان ؟
تلك المصيبة أنست ما تقدمها   وما لها من طوال الدهر نسيان

* * *

يا راكبينَ عتاق الخيل ضامرةً   كأنّها فى مجال السبْق عِقبان
وحاملين سيوف الهند مُرهَفةً   كأنها فى ظلام النَقْع نيران
وراتعين وراء البحر فى دَعَةٍ   لهم باوطانهم عِزٌّ وسلطان
أعِندكمْ نبأٌ من أهل أندلسٍ ؟   فقد سَرَى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم   قتلى وأسرَى فما يهتزُّ إنسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكمْ !   وأنتمُ يا عباد الله إخوان
ألا نُفوسٌ أبيّات لها هِممٌ   أما على الخير أنصار وأعوان ؟

* * *

يا من لِذلّةِ قوم بعد عِزّهم   أحال حالهمُ جَورٌ وطُغيان
بالأمسَ كانوا ملوكا فى مَنازلهم   واليومَ هُمْ فى بلاد الكُفر عُبدان
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم   عليهمُ فى ثياب الذُّلِّ ألوان
ولو رأيت بُكاهم عند بيْعهمُ   لَهالَك الأمر واستهوتك أحزان

* * *

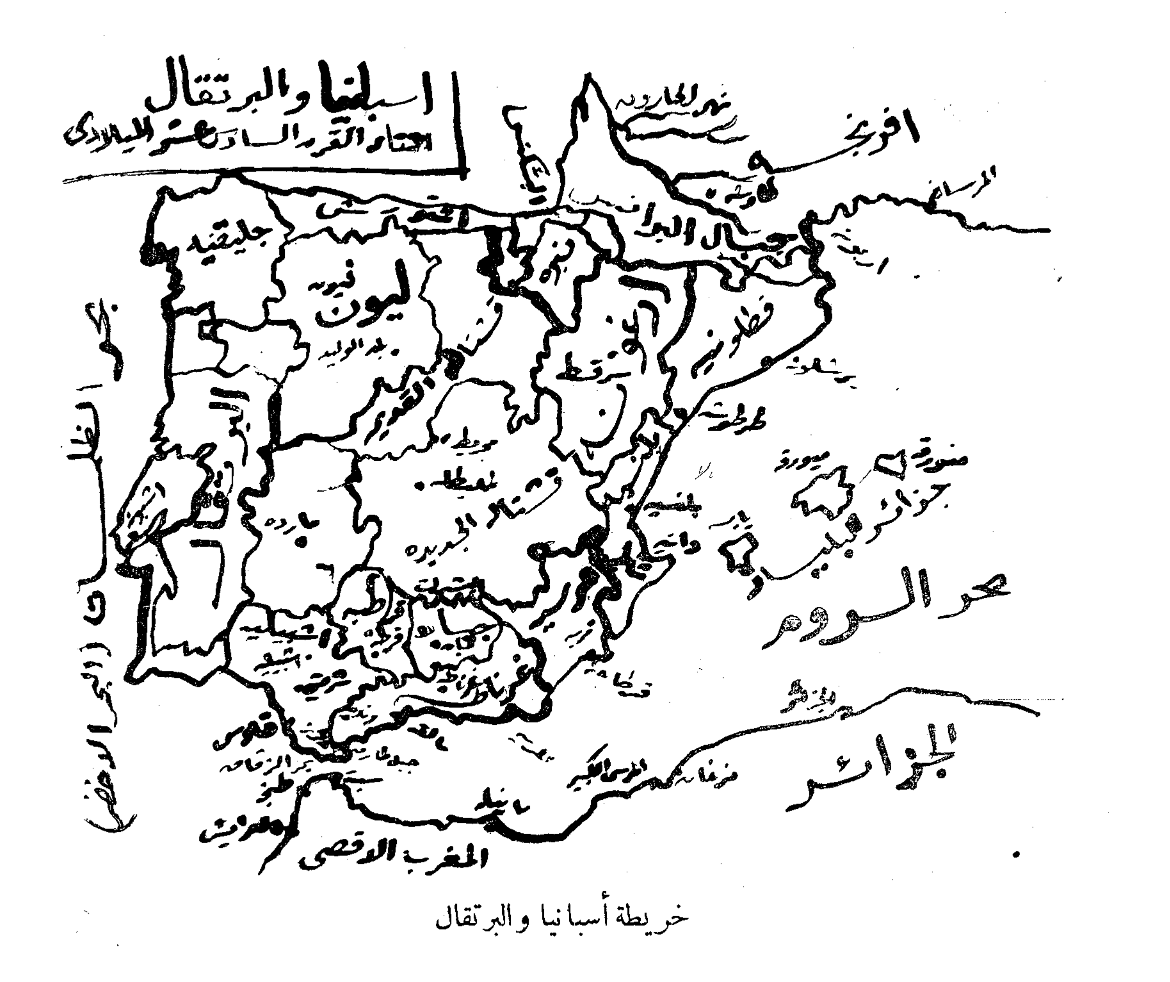
يا رُبّ أُمّ وطِفْلٍ حِيلَ بينهما   كما تُفرّقُ أرواحٌ وأبْدانُ
وطفلةٍ مِثلُ حسن الشمس إذ طلعت   كأنما هى ياقوتٌ ومَرجان
يقُودُها العِلْج للمكرُوه مكرَهةً   والعينُ باكية والقلب حيران

* * *

لِمثْل هذا يذوب القلبَ من كَمَدٍ   إن كان فى القلب إسلام وإيمان

خاتمة

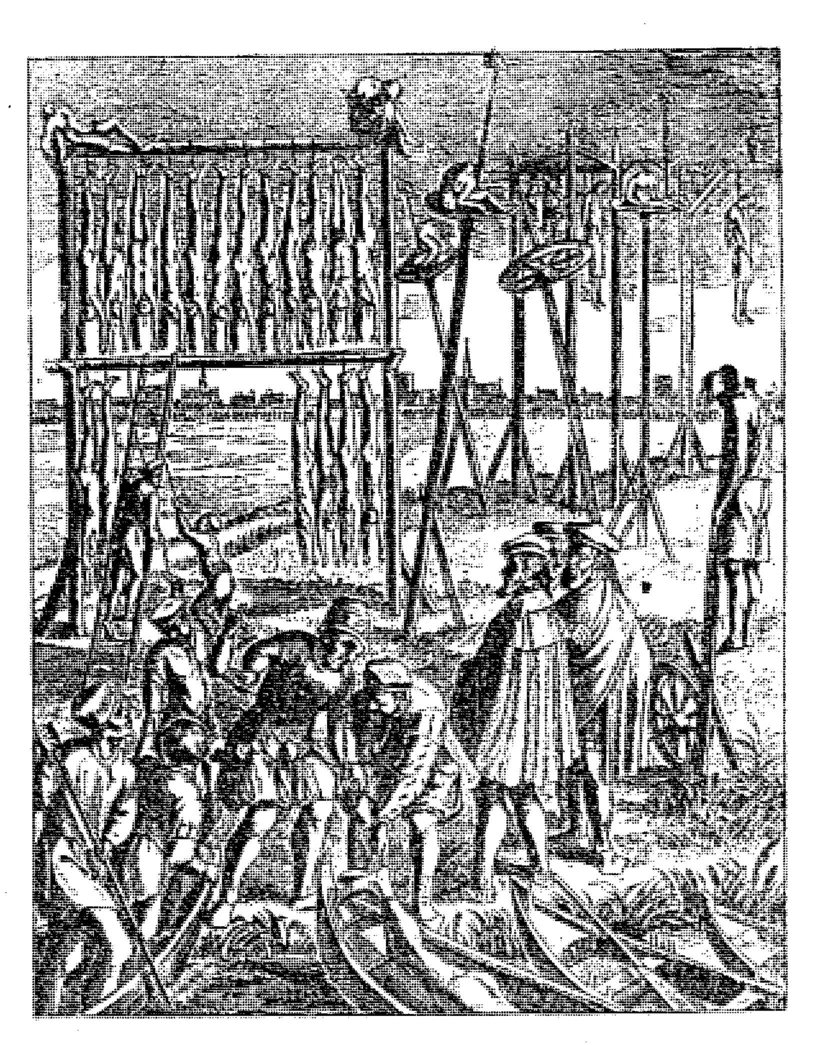
هذا الكتاب يعطى القارىء صورة مصغرة لفظائع ووحشية ديوان التفتيش ، حين كان يقوم باسم الدين المسيحى الذى يبرأ منه المسيح عيسى بن مريم عبد الله ورسوله عليه السلام ، وهى صورة يرى فيها للقارىء ما كانت عليه قلوب هؤلاء القساوسة والرهبان من الغلظة والقسوة التى لاتمت إلى الانسانية بأى صلة ، بل أن الوحوش المفترسة لتنفر منها ويزيد الصورة جلاء ووضوحاً ما وضعناه من الصور الشمسية لبعض هذه المآسى الدامية . وقد صرفنا وقتاً ليس بالقليل فى الحصول على هذه الصور من مختلف الكتب وبعضها من مجلة اللطائف المصورة المصرية . التى كانت تصدر بالقاهرة منذ سنوات



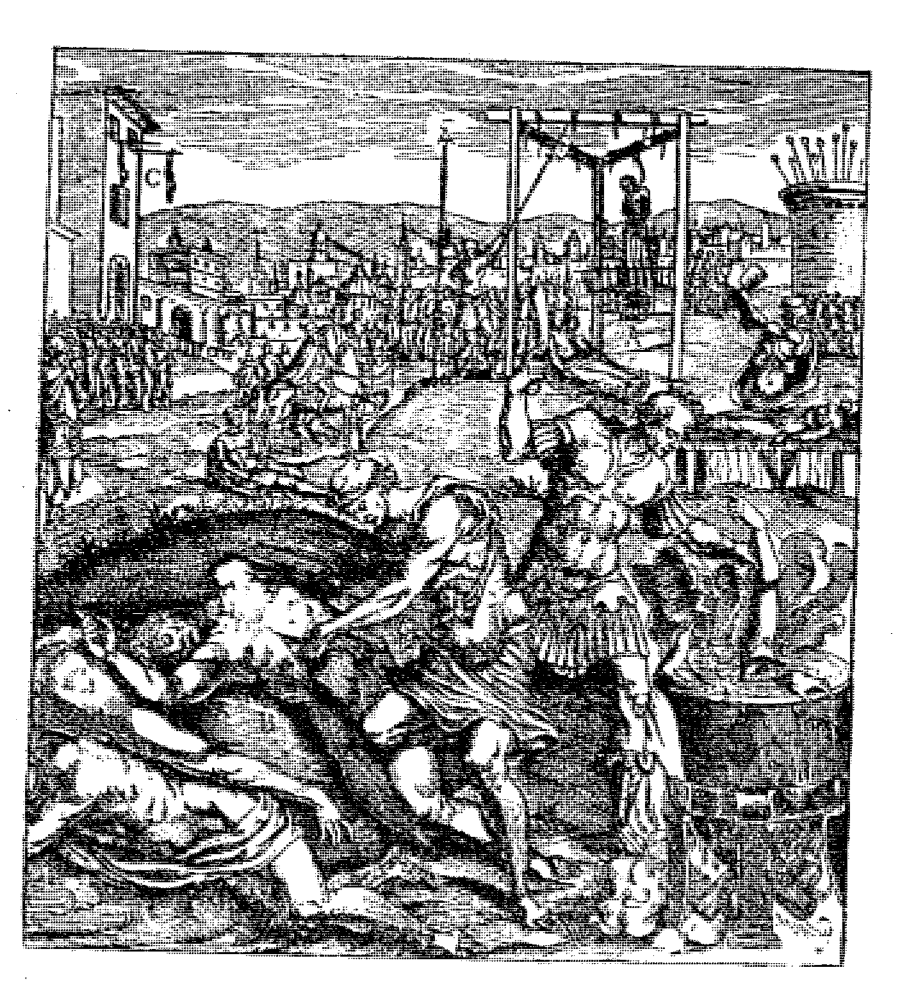
خريطة أسبانيا والبرتقال



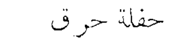
منظر شنق و تعذيب



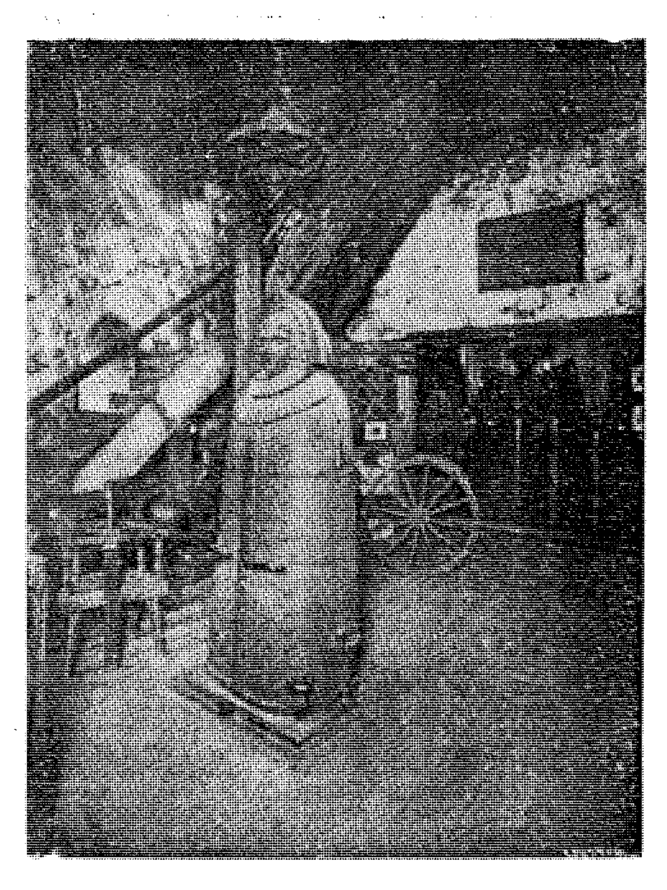
منظر تعذیب



حمام الدماء (منظر تعذيب)



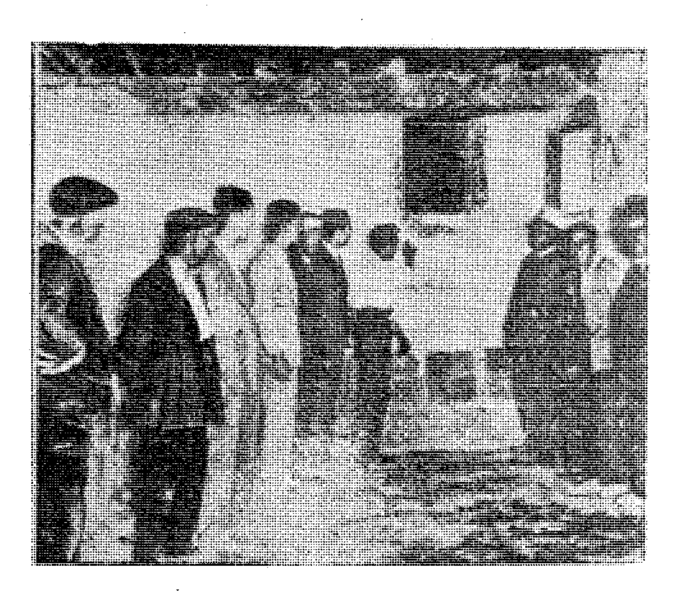
حفلة حرق



الفتاة البكر الحديدية



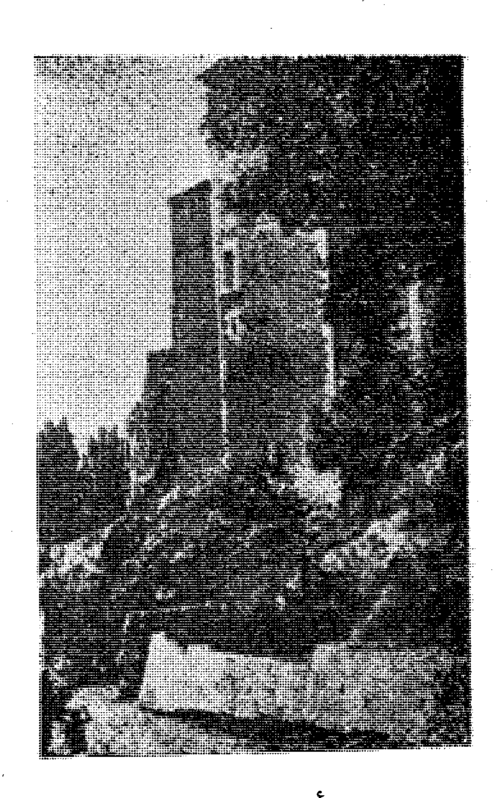
طبيب يفحص إحدى الجثث التى وجدت بالممرات بمدينة كونيكا بأسبانيا



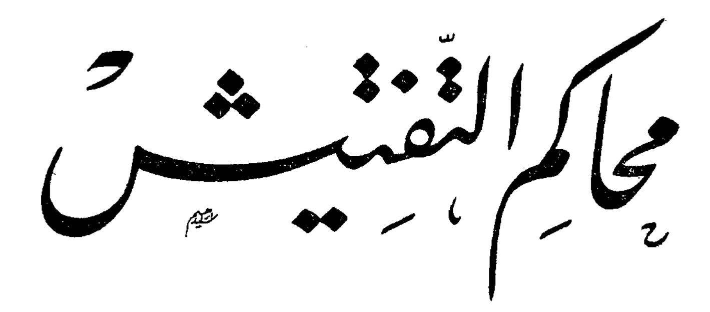
منظر خارجي للسجن تظهر فيه النافذة ويظن أن المحكوم عليهم كانوا
يدلون منها إلى الداخل ليموتوا موتا بطيئاً



منظر داخلي لغرفة سجون التفتيش تظهر فيه جثث بعض الضحايا



بناء قديم بكونيكا بأسبانيا وجدت به سجون التفتيش



بأسبانيا والبرتقال وفرنسا وغيرها ...

وفيه آخر صفحة لتاريخ المسلمين بالفردوس الاسلامى المفقود (الأندلس)

تأليف

دكتور

علي مظهر

مطبعة أنصار السنة المحمدية

١٣٦٦ هـ ، ١٩٤٧ م

فهرس الكتاب

فهرس الصور الشمسية

صـــــواب مطبعى

صفحة	سطر	اقرأ
٢	٥	حتى كانوا
٦	٢٠	سرقسطة
٨	١٤	طلمنقه
٨	١٥	الادفونش
٩	٦	احذف الشولة بين نافادو وثولوزا
٩	٧	العقاب
١٠	٤	الزغل
١١	٥	سرقسطة
١١	١٥	ابن عباد
١٢	١٥	غدرا
١٣	١٩	زوجه
١٤	١٤	بادارة
١٥	١٩	مارتير
١٧	١	الحجاز
١٩	١٩	البيازين
٢٠	١٨	علومهم وفنونهم
٢٢	٢	البشكنس
٢٦	٣	هؤلاء جزاء الا
٣٣	٤	لجل
٣٥	٧	دارا
٣٦	٢	ضده
٣٦	٩	أو
٣٦	١٣	والاسلام

صفحة	سطر	اقرأ
٣٧	٨	مواقع حربية
٣٩	٥	يجازوا
٤٤	٤	بورجشتال
٤٥	١٧	اسمه مصطفى واجبر على أن يبدل اسمه
٤٥	١٨	قرصنة
٤٥	٢٠	البربرية
٤٦	٩	كارانيزا
٤٦	١٢	ان قبض
٤٧	١٠	تركويماذا
٤٧	١٦	محاكمة
٥٢	٢	الاشبونة
٥٣	٢	عليه
٥٥	٥	ينفذا
٥٨	٩	المعذبين
٦١	١٣	لكيلا يموت
٦٥	١٥	ثم جاء اليوم
٦٧	١	تبارى
٦٨	١٥	الجماهير فى الزمان
٧١	٧	التفنن
٧١	١٥	الملكة
٧١	١٨	الاستئصال
٧٣	١٣	بيلد الوليد
٧٧	١١	سار فى

صحيفة	سطر	اقرأ
٧٩	١	٤
٨٦	٤	هربوا ؛ أفلا تعلم
٩١	٣	الخشب فى حجمه
٩٩	٧	لقيا
٩٩	٨	فيانيى
٩٩	٢٢	هايتيا
١٠٠	١١	عاريا
١٠١	٤	الفلسفة
١٠٤	٣	للكثلكة
٨٢	١	احذف ٩
٩١	١	احذف ١٠

صحيفة	سطر	اقرأ
٩٣	١٥	« ١٨
١٠٣	١	« ١٢
١١١	١	« ١٣
١١٩	٣	فى
١١٩	١٩	المحكمة
١٢٥	٥	التفتيش
١٢٦	١٦	بتقديم
١٢٨	١٧	ممددا
١٩١	١	احذف ١٤
١٢٤	١	« ٥

المراجع

تاريخ وفظائع ديوان التفتيش فى البرتوقال وأسبانيا بقلم جرجى الحداد طبع بسان باولو — برازيل سنة ١٩٢٣

ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى تأليف محمد عبد الله عنان المحامى .
الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ — ١٩٣٠ م .

Don Juan Antonio Liorente :
Histoire Critique de L' Inquisition d' Espagne
(The) Encyclopaedia Britanniea (Inquisition)
Henry Ford :
Derinternationale Jude
Henry Charles Lea : The Moriscos of Spain ; their Conversion and Expulsion .
Josef Condé : Histoire de la Domination des Arabes en Espagne
(Die) Juedische Encyclopadie .
William Prescott : History of Ferdinand and Isabella of Spain .
« « History of Philip the 2 of Spain .
Graetz : Geschichte der Juden
Dubnov : « « «